ردمد: ٤٥٨٦-٢٥٢١

الخزانة

مجلة علمية نصف سنوية تعنى بالتراث المخطوط والوثائق

تصدر عن مركز إحياء التراث التابع لدار مخطوطات العتبة العباسية المقدسة

العدد السابع، السنة الرابعة، شعبان ١٤٤١هـ/ آذار ٢٠٢٠م

الخزانة

مجلة علمية نصف سنوية تعنى بالتراث المخطوط والوثائق

تصدر عن

مركز إحياء التراث التابع
لدار مخطوطات العتبة العباسية المقدسة

العدد السابع، السنة الرابعة
شعبان ١٤٤١هـ/ آذار ٢٠٢٠م

مركز احياء التراث
التابع لدار مخطوطات العتبة العباسية المقدسة

العتبة العباسية المقدسة. المكتبة ودار المخطوطات. مركز احياء التراث.

الخزانة : مجلة علمية نصف سنوية تعنى بالتراث المخطوط والوثائق / تصدر عن مركز احياء التراث التابع لدار مخطوطات العتبة العباسية المقدسة.ـ كربلاء، العراق : العتبة العباسية المقدسة، المكتبة ودار المخطوطات، مركز احياء التراث ، 1438 هـ = 2017 -

مجلد : ايضاحيات ؛ 24 سم

نصف سنوية.-السنة الرابعة، العدد السابع (آذار 2020)-

ردمد : 4586-2521

تتضمن ملاحق.

تتضمن إرجاعات ببليوجرافية.

النص باللغة العربية ومستخلصات باللغة العربية والانجليزية.

1. المخطوطات العربية--دوريات. ألف. العنوان.

LCC : Z115.1 .A8364 2020 NO. 7

DDC : 011.31

مركز الفهرسة ونظم المعلومات التابع لمكتبة ودار مخطوطات العتبة العباسية المقدسة

الترقيم الدولي

ردمد: ٤٥٨٦-٢٥٢١

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق العراقية ٢٢٤٥ لسنة ٢٠١٧م

كربلاء المقدّسة - جمهورية العراق

يمكن الاتصال أو التواصل مع المجلة من خلال:

٠٠٩٦٤ ٧٦٠٢٢٠٧٠١٣ / ٠٠٩٦٤ ٧٨١٣٠٠٤٣٦٣

الموقع الإلكتروني: Kh.hrc.iq

الإميل: Kh@hrc.iq

صندوق بريد: كربلاء المقدّسة (٢٣٣)

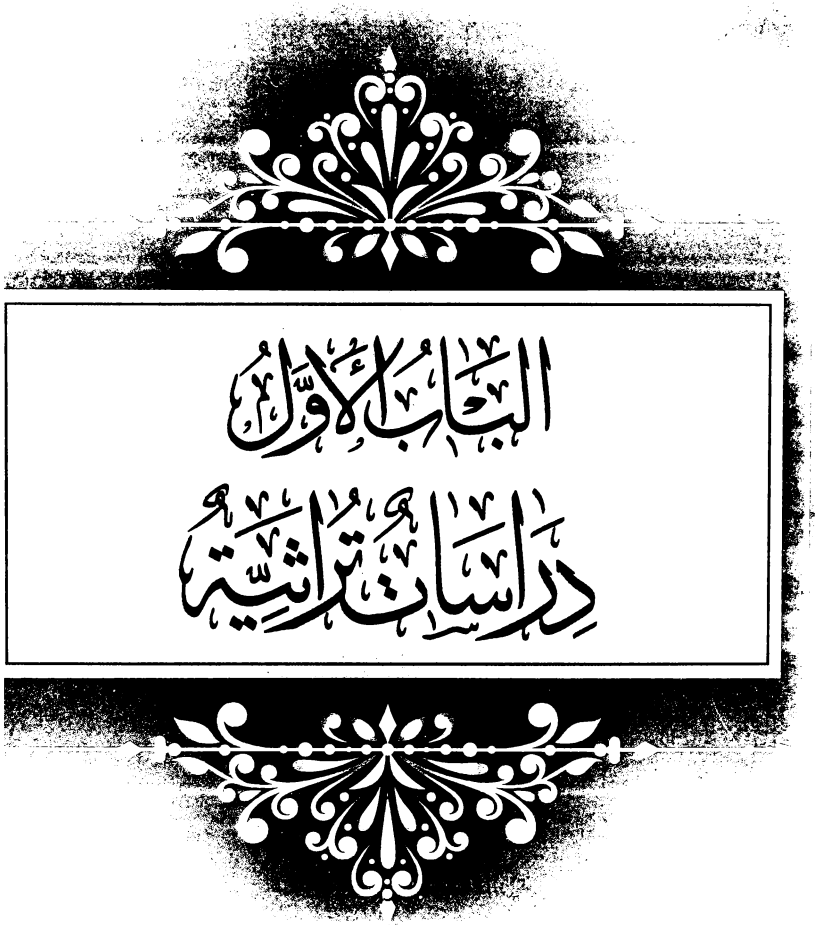
الباب الأول
دراسات تراثية

الوِرَاقة في دمشق من القرن الرابع الهجريّ حتى القرن الرابع عشر الهجريّ

Papermaking in Damascus - from the fourth century until the fourteenth century (Hijri calendar)

الدكتور سعيد الجوماني

دكتوراه في علم المكتبات

باحثٌ زائرٌ في معهد الدراسات الإسلاميّة في جامعة برلين الحرة- ألمانيا.

Dr. Saeed Jawmani

PhD in library science

Visiting Scholar at the Institute of Islamic Studies in Freie Universität Berlin

Germany

الملخّص

تناول البحث تأريخ مهنة الوِرَاقة في دمشق عبر شقّين، أحدهما إنتاج الورق، والثاني أسواق الورّاقين، فناقش التاريخَ المزعوم لصناعة الورق بدمشق، وكذلك تعريفات ابن خلدون للوِراقة، كما عرَّج على قضية تأجير الكتب المسكوت عنها، وبعدها بيَّن أنّ أسواق هذه المهنة لم تبرح جوار الجامع الأمويّ حتى القرن الرابع عشر الهجريّ، أمّا خارج سور المدينة فتمَّ الكشف عن سوقٍ في منطقة (الصالحيّة) في جبل (قاسيون)، وأن لهذه المهنة شيخًا مسؤولًا عنها، كما كُشف عن مصطلح جديد من مصطلحات المخطوطات؛ وهو (الكرند) مع تبيان دلالته.

ثمّ ناقش البحث حركة تنقّل المخطوطات في دمشق في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريّين، متتبّعًا ما صدر من قوانين تُقنّن الإتجار بالمخطوطات، ومدى فاعلية هذه القوانين، حتى تمّت مناقشة قضية تغريب المخطوطات بشكل موضوعيّ بعيدٍ عن الانفعاليّة، وأخيرًا عرَّف البحث بمحمّد صادق فهمي المالح؛ أحد أواخر ورَّاقي دمشق، الذي أثرى المشهد الثقافيّ بما نسخه، وما أوقفه من مخطوطات، ورغم دوره ذاك بقي خارج كتب التراجم؛ فاستُخرِجَت سيرتُه من خوارج النصوص التي خطّها بيمينه.

Abstract

The research deals with the history of the paper manufacture line of work in Damascus through two parts, which are (paper production), and (the paper market). Thus this research discusses the alleged history of papermaking in Damascus, as well as Ibn Khaldun's definitions of papermaking. The research also observes the issue of renting books, which has not been researched, but rather kept silent. After that, it enlightens that the markets of this occupation did not leave the vicinity of the Umayyad Mosque until the fourteenth century (A.H). It also tells the discovery of a market outside of the city wall, in the Salehiyah area in Jabal Qasiyoun, and this profession had an elderly man in charge of it. It also reveals a new term for manuscripts, which is (Al-Karand) with an indication of its significance.

Then the research discussed the movement of manuscripts in Damascus in the thirteenth and fourteenth centuries (A.H), following the laws that were organized to traffic in manuscripts. In Addition to the that the research takes a look at the effectiveness of these laws, and discusses the concept of manuscripts isolation, far from emotionalism. Finally, the research defined Muhammad Sadiq Fahmi Al-Maleh, one of the last papermakers of Damascus, who enriched the cultural world with what he copied, and the manuscripts he ceased. His biography was extracted from the texts that he wrote himself; because despite his role, he was never mentioned in biographies.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

شَغَلَ تأريخُ مهنةِ الوراقةِ العربيّة الإسلاميّة ذِهنَ فريقين من الباحثينِ[١]؛ الأول مهتمٌّ بتاريخ الحضارة العربيّة الإسلاميّة؛ ومبرّره أنَّ هذه المِهنة لا تظهر إلّا في مجتمعٍ مُتحضِّر؛ فوجودها وازدهارها مُؤشرٌ على رُقيِّ القوم. وقد أكدَّ ابن خلدون هذه الحقيقة عندما قال: إنَّ الصنائع تكتمل بكمالِ العمرانِ الحضريّ؛ فالنّاس ما لم يُستوفَ العمران الحضريّ، وتتمدّن المدينة، فإنّما همُّهم الضروريُّ من المعاش وتحصيلُ الأقوات، فإذا ما تمدَّنت المدينةُ، وزادت فيها الأعمالُ، حينئذٍ ينصرف الجهدُ إلى الكمالات من المعاش، ومنها الصنائع[٢]. والوِرَاقة إحدى هذه الصنائع المختصّة بالأفكار التي هي خاصيّة الإنسان[٣]، وعلى نسبة العمران في الكثرة والقلّة، والحضارة والترف، تأتي نسبة الصنائع في الجودة والكثرة[٤]، ولهذا كان أبو المطهّر الأزديّ (النصف الثاني من القرن الخامس الهجريّ/ الحادي عشر الميلاديّ)[٥] يُفاخر أهل أصبهان بالصناعات الموجودة في بغداد فقال: «هل أرى عندكم من أرباب الصناعات والمهن مثل من أرى ببغداد من الورَّاقين، والخطّاطين، والخيّاطين، والخرّاطين، والزرّادين، والمزوِّقين، والطبّاخين، والطحّانين، والمطربين مَن لا يُحصى عدداً من الحذّاق ؟»[٦]. وعليه فإنَّ

(١) ينظر: تقاليد المخطوط العربيّ، البيليوجرافيّة: محمود زكي: ٣٨- ٤١، والوراقة دراسة في المفهوم والمصطلحات في صناعة المخطوط العربيّ الإسلاميّ من الترميم إلى التجليد: يحيى محمود بن جنيد الساعاتيّ: ٨٩ - ٩٣.

(٢) ينظر مقدّمة ابن خلدون: ١/ ٥٠٢.

(٣) ينظر مقدّمة ابن خلدون: ١/ ٥٠٢.

(٤) ينظر ابن خلدون: المقدمة: ١/ ٥٠٣.

(٥) ينظر حكاية أبي القاسم البغداديّ حول المؤلّف والعصر والنوع: محمّد بن تتا، مجلة مجمع اللغة العربيّة. مج ٨٥، ١١١٩- ١١٣٩.

(٦) حكاية أبي القاسم البغداديّ: الأزديّ: ٢٤.

رُقيّ مهنة الوِراقة في مجتمع ما دليلٌ على تحضّر ذاك المجتمع.

أمّا الفريق الثاني فَهُم المهتمّون بتاريخ الكتب والمكتبات، والمختصّون بعلم المخطوطات العربيّة الإسلاميّة، ومبرّرهم أنّ مهنة الوِرَاقة تُعدُّ ركناً رئيساً من أركان دراسة تاريخ الكتاب العربيّ المخطوط، ودورة الاتصال المعرفيّ في الحضارة العربيّة الإسلاميّة؛ لأنّ الورّاقين أسهموا بأمور:

١. إنتاج الكتب وتداولها، وفي نشر العلم.

٢. إتاحة الفرصة للأدباء والعلماء للالتقاء والتحاور[١]؛ فكانت حوانيتهم أشبه بنوادٍ علميّة وصالونات أدبيّة، فيروي أبو نصر الزجّاج: «كنت جالساً مع أبي الفرج الأصفهانيّ في دكانٍ في سوق الورّاقين، وكان أبو الحسن عليّ بن يوسف بن البقال الشاعر جالساً عند أبي الفرج الخرّاز الورّاق وهو يُنشد أبيات إبراهيم بن العباس الصوليّ التي يقول فيها:

رأى خَلَّتي من حيثُ يخفَى مكانُها
فكانت قذى عينيه حتى تجلَّتِ

فلما بلغ إليه استحسنه وكرّره، ورآه أبو الفرج فقال لي: قمْ إليه فقلْ له قد أسرفت في استحسان هذا البيت، وهو كذاك، فأين موضع الصنعة فيه؟ فقلت له ذاك، فقال: قوله: وكانت قذى عينيه. فعدت إليه وعرّفته، فقال: عدْ إليه فقل له: أخطأت الصنعة في قوله: من حيث يخفى مكانها»[٢].

والأمر ذاته يُروى عن عبد الله بن محمّد بن وداع بن زياد بن هانئ الأزديّ (كان حياً سنة ٢٣٠هـ/٨٤٥م)؛ فقد كان صاحب «دكان ببغداد يُورِّق فيه، ويجتمع إليه عامّة أهل الأدب، ويحصل فيه بينهم من المحاضرة والمذاكرة ما لا يحصل في غيره من

(١) ينظر: خزائن الكتب القديمة في العراق منذ أقدم العصور حتى سنة ١٠٠٠ للهجرة: كوركيس عوّاد: ٢٥، والوِراقة وأشهر أعلام الورّاقين دراسة في النشر القديم ونقل المعلومات: عليّ بن إبراهيم النملة: ٣٥، ونحو علم مخطوطات عربيّ: عبد الستّار الحلوجيّ:٤١.

(٢) معجم الأدباء: ياقوت الحمويّ: ٤/ ١٧١٣- ١٧١٤.

أندية الأدب»[١] وربما لذلك قيل: «جلوس الأدباء عند الورَّاقين، وجلوس المُخمِّنين عند النخّاسين[٢]، وجلوس الطفيليّين عند الطبّاخين»[٣]. ومن البدهي أنّ تلاقح الأفكار يُثمر أبحاثاً جديدة، أو يصقل فكرة، أو يُعدّل رأياً.

وعندما طُلِبَ إلى أبي الوفاء بن عقيل وصف بغداد، قال عن سوق الورَّاقين إنّها: «سوقٌ كبيرة؛ وهي مجالس العلماء والشعراء»[٤].

وفي حالة خاصّة كان بدر الدين الزركشيّ (ت ٧٩٤هـ/١٣٩٢م) يُكثر الجلوس في أحد حوانيت عبد الكريم بن إبراهيم بن أحمد كريم الدين المصريّ الحنبليّ الكتبيّ (ت٨١٩هـ/ ١٤١٦م) «التي بها ما لا يحتاج لبيعه غالباً، طوال النهار غالباً، للمطالعة والكتابة ونحو ذلك»[٥]، ويؤكّد هذا ما قاله عنه ابن حجر: أنّه «كان منقطعاً في منزله لا يتردّد إلى أحدٍ إلّا إلى سوق الكتب، وإذا حضره لا يشتري شيئاً، وإنّما يُطالع في حانوت الكتبيّ طول نهاره ومعه ظهور أوراقٍ يُعلِّق فيها ما يُعجبه، ثمّ يرجع فينقله إلى تصانيفه»[٦].

٣. إتاحة الكتب ليس عن طريق البيع فقط، بل عن طريق الإكراء؛ أي الإجارة، وهذا الدور لم يأخذ حقّه من الاستقصاء والدراسة، وهنا محاولة لعرض بعض النصوص ذات الصلة مع التعليق عليها؛ بدايةً عُرِفَ عن الجاحظ (ت ٢٥٥هـ/٨٦٩م) أنّه كان يكتري حوانيت الورَّاقين ويبيتُ فيها للنظر[٧]، أي أنَّ الجاحظ كان يستأجر دكان الورَّاق؛ ليطالع ما حواه من كتبٍ، وينسخ منها ما يُعينه في تآليفه لاحقاً، وهذا الأسلوب قد يوفّر له الوقوع على تصانيف لم تخطر له على بال، إلّا أنَّ هذا الأسلوب يطرح سؤالاً؛

(١) إنباه الرواة على أنباه النحاة: القفطيّ: ٢/ ١٣٤.

(٢) النخّاسُ هو بائع الدواب.

(٣) العقد الفريد: ابن عبد ربه: ٤/ ٢٨١.

(٤) مناقب بغداد: ابن الجوزيّ: ٢٦.

(٥) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: السخاويّ: ٤/ ٣٠٦.

(٦) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ابن حجر العسقلانيّ: ٣/ ٣٩٨.

(٧) ينظر الفهرست: النديم: ٥/ ٢١٠١.

وهو كيف كان أصحاب الدكاكين يُسَلِّمُونها بما حوَت إلى الجاحظ؟ هل بعد عملية جرد واستلام وتسليم؟ أم أنّ الثقة كانت كافيةً بينهم؟

كما كان أحد وَرَّاقي بغداد يؤجّر كتبه لإسحاق بن نُصَير العِبَاديّ (ت ٢٩٧هـ/٩١٠م)[١]؛ وكان الأخير في بدايته فقيراً مُملقاً يأتي إلى دكان الورّاق راجلاً بثيابه الرثّة؛ فيستعير منه الكتاب تلو الآخر؛ فإذا طالبه الورَّاق بأجرةٍ ما أخذه لينسخه قال له: اصبرْ حتى تتيسّر حالي، والورَّاق يُصبِّره ولا يمنع عنه الكتب، ثمّ ابتسمت الأيام لإسحاق، وغدا كاتبَ الرسائل في ديوان أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون في مصرَ، وبلغت جرايته في الشهر ألف دينار.

وفي أحد الأيام أراد صديقٌ لإسحاق السفرَ إلى بغداد فأراد توديعه؛ فأعطاه إسحاق ثلاثة آلاف دينار وقال له: ادفع ألفاً لثعلب (ت ٢٩١هـ/٩١٤م)، وألفاً للمبرّد (ت ٢٨٦هـ/٨٩٩م)[٢]، وألفاً للورَّاق الذي كنتُ أستأجر منه الكتب؛ وقل له: (هذه ثمرة صبرك عليّ). ووصف له موضعَ دكان الورّاق في قصر (وضّاح)، فلما جاءه صديق إسحاق وجدَ دكانه خالياً من الكتب وصاحبه في حالٍ رثّةٍ، وقد أفضى به الأمر إلى التوريق للناس، فأعطاه الدنانير الألف فكاد يموت فرحاً[٣].

وهنا يتضح أنّ تأجير الكتب كان حلّاً ناجعاً لطلبة العلم الفقراء غير القادرين على شراء الكتب، ولمثل حالة (إسحاق) غير القادر على سداد أجرة الكراء نفسها، كما يتبيّن أنّ الورّاق صاحب الدكان الذي كان يبيع الكتب ويؤجرها وربما كان لديه من يُوَرِّق بالأجرة، اضطر للتوريق للناس حينما أملق، وهذه إشارة مهمة للموازنة بين الورّاق صاحب الدكان، والورَّاق الناسخ بالأجرة.

وكان ابن حجّاج الحسين بن أحمد بن محمّد بن جعفر الشاعر (ت ٣٩١هـ/١٠٠١م)

---

(١) كان كاتباً في ديوان خمارويه بن طولون في مصر. انظر ترجمته في معجم الأدباء: ياقوت الحمويّ: ٢/ ٦٢٨، والوافي بالوفيات: الصفديّ: ٨/ ٢٧٨.

(٢) أي أنّ هذه الحادثة جرت قبل سنة ٢٨٦هـ

(٣) ينظر المكافأة وحسن العقبى: ابن الداية: ١٧-١٨.

مـن أصحـاب المجـون والخلاعة، وإمامَ الشـعرِ في هـذا الباب، وقد جمع أخبـاره أبو بكر محمّـد بـن عبـد اللـه بن حمـدون في مجلـدةٍ، ذكـر في أوّلهـا: أنَّ صديقـاً له قـال: رأيتُ عند بعض الورَّاقين جزءاً من شـعر ابن حجّاج، فسـألته أن يبيعنيه بما شـاء؛ فامتنع وقال لـي: إنّ هـذا الجزء في دكاني بمثابة جارية حسـنة الصـوت، جميلة المحيا، يكتريه حُرفاء لـي، مُجَّانٌ إذا اجتمعوا للشـرب، بأجرةٍ قـد اتفقنا عليها[١].

وعندمـا احتـرق سـوق الكتبيّيـن فـي دمشـق سـنة (٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)[٢] طالـت النيـران دكان الفاشوشـة الكُتُبـيّ[٣]، فاحتـرق له خمسـة آلاف مجلّد[٤]، ولـم يبقَ له غير الكتـب التـي كانـت عنـد النـاس في العَـرضِ[٥] أو فـي العاريـة[٦]. أي أنَّ الجـزء الناجي مـن كتـب الفاشوشـة كان معروضـاً عنـد غيـره؛ إمّا فـي حوانيتهـم، أو مـع الدَّلالين، أو مـا كان مُعـاراً بالأجرة.

وكان محمّـد بـن عثمـان بن عيسـى البَرمـيّ، الصالحـيّ، الكُتبـيّ (ت٩٠٩هـ/١٥٠٣م) كثيـرَ الكتـب، عارفـاً بهـا، وأكمـلَ بخطّه العديـد منهـا، واشـتُهِرَ بكـراء الكتـب الغزليّات، وكتـب الحكايـات، وكان المتفرِّغـون يقصدونـه لذلـك[٧].

كذلك كان أبو حسـن أحمد الرّبَّاط الحلبيّ الشـقيفاتيّ الشـافعيّ (ت ١١٩٥هـ) - بعد

---

(١) ينظر الوافي بالوفيات: ١٢/ ٢٠٦.

(٢) ينظر تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: الذهبيّ: ١٥/ ٧.

(٣) الفاشوشة الكتبيّ: إبراهيم بن أبي بكر بن عبد العزيز شمس الدين الجزريّ الكتبيّ (ت ٧٠٠هـ/ ١٣٠١م). (ينظر الوافي بالوفيات: ٥/ ٢٢٣)

(٤) وهي عند ابن العماد الحنبليّ خمسة عشر ألف مجلّد. (ينظر شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد الحنبليّ: ٧/ ٦٤٦)

(٥) «عرضتُ الكتابَ، وعرضتُ الجندَ عرضَ العينِ. إذا أمررتهم عليك ونظرتَ ما حالُهم». (لسان العرب: ابن منظور: ٢٨٨٥)

(٦) ينظر: الوافي بالوفيات: ٥/ ٢٢٣، وشذرات الذهب: ٧/ ٧٩٦.

(٧) ينظر السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة: ١٠٠٠- ١٠٠١.

١٢٥٤هـ/١٨٣٨م)[١] صاحبَ مكتبةٍ لتأجير الكتب في دمشق[٢].

وإنّ الامتداد الزمنيّ لظاهرة تأجير الكتب منذ أيام الجاحظ في القرن الثالث الهجريّ حتى القرن الثالث عشر الهجريّ، يُبيّن أنّ تأجير الكتب يشكّل جانباً مهمّاً وأساسياً من عمل دكاكين الورّاقين؛ لأنّه مصدرُ رزقٍ لأصحاب الحوانيت، أمّا عن ضوابط تسعير الأجرة، ومدّة الاستئجار، وضمانات الاسترجاع فما زالت خفيّة. هذه المقدّمة رأيتها ضروريّة؛ للتفريق بين مصبّ أبحاث الفريقين، ولاعتماد بعض ما جاء فيها في مناقشة ابن خلدون في تعريفاته للوِرَاقة.

الوِرَاقَة عند ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م):

أورد ابن خلدون ثلاثة تعريفاتٍ لمهنة الوراقة فقال: «الوراقة وهي معاناة الكتب بالانتساخ والتجليد»[٣]، ثم قال: «الورّاقين الذي يُعانون صناعة انتساخ الكتب وتجليدها وتصحيحها؛ فإنَّ هذه الصناعة إنّما يدعو إليها الترف في المدينة من الاشتغال بالأمور الفكريّة»[٤]، وأخيراً قال: «كانت العناية قديماً بالدواوين العلميّة والسجلّات في نسخها وتجليدها وتصحيحها بالرواية والضبط؛ وكان سبب ذلك ما وقع من ضخامة الدولة وتوابع الحضارة، وقد ذهب ذلك لهذا العهد بذهاب الدولة وتناقص العمران، بعد أن كان منه في الملّة الإسلاميّة بحرٌ زاخر بالعراق والأندلس؛ إذ هو كله من توابع العمران، واتساع نطاق الدولة، ونَفاق أسواق ذلك لديهما؛ فكثرت التآليف العلميّة والدواوين، وحرص الناس على تناقلهما في الآفاق والأعصار؛ فانتُسخت وجُلّدت، وجاءت صناعة الورّاقين المعانين للانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتبيّة والدواوين، واختصت بالأمصار العظيمة العمران»[٥].

---

(1) http://orient-digital.staatsbibliothek-berlin.de/receive/SBBMSSecentry_secentry_00001855

(2) Boris Liebrenz: Die Rifāʿīya aus Damaskus: 228-235. Boris Liebrenz: The library of Aḥmad al-Rabbāṭ: 17-59.

(٣) مقدّمة ابن خلدون: ١/ ٥٠٢.

(٤) مقدّمة ابن خلدون: ١/ ٥٠٣.

(٥) مقدّمة ابن خلدون: ١/ ٥٣٢.

قد يتبادر للذهن أنّ هناك استدراكاتٍ في تعريفات ابن خلدون حتى وصل إلى تعريفه الشامل، وأنّ تعريفَه هذا - حسب السياق الذي أتى به - خاصّ بحقبة ازدهار الدولة العربيّة الإسلاميّة؛ أي نهاية القرن الثاني الهجريّ حتى القرن الرابع الهجريّ.

لكن هناك من الشواهد ما يُفسِدُ هذا الظنَّ؛ ففي ترجمة علّان الشعوبيّ الورَّاق (ت بعد ٢١٨هـ/٨٣٣م): أنّه كان له دكانٌ يبيع فيه الكتب وينسخ، وكان يعمل عنده شخص اسمه (الفيرزان)، يُورِّق في دكانه[١].

وفي قصة ورَّاق إسحاق بن نُصير العِباديّ التي جرت قبل سنة(٢٨٦هـ/٨٩٩م) تبيّن أنّ هناك الورَّاق صاحب دكان الوِرَاقة، والورَّاق الذي يُوَرِّق للناس؛ وهو أقلّ من صاحب دكان الورَاقة رتبةً من حيث المردود الماديّ.

وهذان الشاهدان يؤكّدان أنّ لفظة (الورَّاق) في القرن الثالث الهجريّ كانت تضيق لتنحصر في الرجل الذي ينسخ بالأجرة، وتتّسع لتشمل صاحب دكان الوِرَاقة الذي كان ينسخ الكتب ويبيعها ويؤجرها، ويعمل عنده من يورّق بالأجرة.

وفي القرن السادس الهجريّ يُميّز السمعانيّ (ت٥٦٣هـ/١١٦٦م) بين الورَّاق الذي ينسخ الكتب ويبيع الورق[٢]، وبين الحبَّار الذي يصنع الحبر ويبيعه[٣]؛ أي أنّ بيع موادّ الكتابة وأدواتها -الذي عبَّرَ عنه ابن خلدون بسائر الأمور الكتبيّة والدواوين - كان مناطاً بمهنتين متمايزتين عن بعضهما.

وعليه يمكن القول: إنّ التعريف الشامل الذي أورده ابن خلدون لمهنة الوراقة غير مختصّ بحقبة ازدهار الدولة العربيّة الإسلاميّة من نهاية القرن الثاني الهجريّ حتى القرن الرابع الهجريّ فحسب، إنّما يتعلّق بفهم ابن خلدون لهذه المهنة منذ نشأتها حتى زمانه؛ لذا أراد أن يجمع كلّ المهن ذات الصلة في إطارٍ واحد، ولا يعني هذا بالضرورة اتّساقها في شخصٍ واحد يُقال له الورَّاق، خاصّة إذا علمنا أنّ صانع الورق

(١) ينظر معجم الأدباء: ٤/ ١٦٣١.

(٢) ينظر الأنساب: السمعانيّ: ١٣/ ٣٠٠.

(٣) ينظر الأنساب: ٤/ ٣٥.

الذي لم يُدرجه ابن خلدون ضمن تعريفه، كان اسمه (الورّاق) أيضاً. فيقول ابن الحاج (ت ٧٣٧هـ/١٣٣٦م): «يتعيَّن على الورّاق الذي في الورّاقة، أنّ لا يعمل شيئاً من الورق المكتوب إلّا بعد أن يعرف ما فيه»[١]، وقد أحسن كوركيس عوّاد عندما نبّه إلى أنّ للوِراقة معنىً أوسع من الورّاق[٢].

الوِرَاقة في دمشق:

سينقسم الحديث عن الوِرَاقة في دمشق إلى قسمين؛ الأول: هو إنتاج الورق، والثاني: هو أسواق الورّاقين.

القسم الأول: إنتاج الورق في دمشق:

ظهر الورق للمرة الأولى سنة (١٠٥م) على يد الصينيّ تساي لون[٣]، ولم يعرف هذا الصينيّ الدور الذي سيلعبه اختراعه في مسيرة الحضارة، ولو علم لألّه ذاته؛ فكان أثر الورق على إنتاج الكتب أثرَ أوّلِ طلقةٍ في الميدان؛ لينهض بعدها بركان التأليف والترجمة، حتى أصبحت الكتبُ أضعافاً مضاعفة.

ويتعرّف العرب على صناعة الورق في سمرقند سنة (١٣٣هـ/٧٥١م) عن طريق صينيّين من أسرى وقعة (أطلح) سباهم فيها زياد بن صالح؛ فيقول الثعالبيّ: «وقع من الصين إلى سمرقند في سبيٍ؛ سباهم زياد بن صالح في وقعة (أطلح) من اتخذ الكواغيد، ثمّ كثرت الصنعة واستمرت العادة حتى صارت متجراً لأهل سمرقند، فعمّ خبرها والارتفاق بها جميع البلدان في الآفاق»[٤].

و لم يرتحل الورق إلى حاضرة الدولة العباسيّة بغداد إلّا بعد قرابة نصف قرن؛

---

(١) المدخل: ابن الحاج: ٤/ ٨٢.

(٢) ينظر: خزائن الكتب القديمة: ٨، موسوعة الوراقة والورّاقين في الحضارة العربيّة الإسلاميّة: خير الله سعيد: ٢/ ٢٥٩.

(٣) ينظر تاريخ الكتاب: دي جروليه: ٢٥.

(٤) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: الثعالبيّ: ٥٤٣، و ينظر لطائف المعارف: الثعالبيّ: ١٢٦، وآثار البلاد وأخبار العباد: القزوينيّ: ٥٣٦.

والدليل على ذلك ما قام به وزير الخليفة هارون الرشيد الفضل بن يحيى بن برمك (١٤٧ - ١٩٣هـ/ ٧٦٤- ٨٠٨م)[١]؛ حيث أشار إلى صناعة الورق، وكتب فيه رسائل السلطان، وصكوكه[٢]، ويقول القلقشنديّ: إنّ النّاس بقيت تستخدم الجلود في كتاباتها إلى حين تولّى هارون الرشيد الخلافة[٣].

ومن بغداد تنتقل صناعة الورق إلى دمشق، ويبقى التاريخ الدقيق لدخول هذه الصناعة مجهولاً، إنّما الثابت حتى الآن أنّ القرن الرابع الهجريّ لم يكن يبدأ ربعه الأخير إلّا ودمشق تنتج الورق، بل تتاجر به أيضاً، هذا ما أكّده المقدسيّ (ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م)[٤].

ورغم اتفاق المراجع العربيّة والأجنبيّة على أنّ بغداد أوّل مدينةٍ عربيّة عرفت صناعة الورق ومنها انتقل إلى دمشق؛ يُجاهر بعض العلماء بالقول: إنّ دمشق عرفت صناعة الورق قبل الإسلام[٥]؛ معتمدين على شرح القرَشيّ لبيت شعرٍ وَرَدَ في معلّقة طرفة بن العبد يصف فيه ناقته؛ حيث يقول:

وَخَدٌّ كقِرطَاسِ الشآمي ومِشفَرٌ
كَسِبْتِ اليَمانيّ قَدُّهُ لم يُجرَّدِ

بأنّ الشاعر يصف بياضَ خدّ ناقته، وأنّه بمنزلة القرطاس قبل أن يُكتب فيه[٦].

وقد أثار هذا الشرح وهذا التوظيف للبيت حفيظةَ حبيب الزيّات؛ فقال: إنَّ تطوّراً دلاليّاً أصاب لفظة (القرطاس) فأصبحت مرادفةً للفظة (الكاغد)؛ لذا لا بد للناظر في

(١) ينظر ترجمته في وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ابن خلكان: ٤/ ٣٦.
(٢) ينظر مقدّمة ابن خلدون: ١/ ٥٣٢.
(٣) ينظر صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ٢/ ٥١٥.
(٤) ينظر أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: ١٨١.
(٥) ينظر معلقة طرفة بن العبد في محاضرات المجمع العلميّ العربيّ بدمشق: المغربيّ عبد القادر: ١٠، و خطط الشام:، محمّد كرد عليّ: ٤/ ٢٤٢ - ٢٤٣.
(٦) ينظر جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام: القرشيّ: ٣١٥ - ٣١٦.

كتابات المتقدِّمين من التمييز بين معاني لفظة (القرطاس)؛ فكلّ ما جاء منها في الجاهليّة حتى القرن الثالث الهجريّ إنّما يُقصد به صُحف البردي، وبه يجب تفسير ما قاله طرفة بن العبد في وصف ناقته[١].

ومع أنَّ كلامه صحيح فيما يخصّ التطوّر الدلاليّ للفظة (القرطاس)، إلّا أنّ تفسيره للـ(قرطاس) في هذا البيت جانَبَ الصواب؛ لأنّ معناه سيصبح: خَدّ الناقة بمنزلة البردي الشآمي، ولم تَعرف الشام يوماً صناعة ورق البردي، لا في الجاهليّة ولا بعدها.

والواضح أنّ الخلط آتٍ من تفسير كلمة (قرطاس) بمعنى (الورق/الكاغد، والبردي). كما فسّرتها معاجم اللغة وكتب التراث، ولكنّ المعاجم نفسها أعطت معانيَ أُخر لهذه الكلمة؛ منها «الجاريةُ البيضاءُ المديدةُ القامةِ»[٢] والمرأة الشاميّة موصوفة بجمال قدِّها وبياض بشرتها، وهذا يجاري معنى البيت ولا ينقضه، وعليه يصبح معنى البيت: بياضُ خدِّ الناقة كبياضِ المرأة الشاميّة، ومن ثمّ لا يجوز توظيف هذا البيت في الحديث عن تاريخ صناعة الورق في دمشق.

ومن دمشق يُصدَّر الورق إلى الأندلس ويُعرف فيها باسم Carta Damascena[٣]، ويقول القلقشنديّ (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) عن قطع هذا الورق ورتبته: إنّه دون القطع البغداديّ في الرتبة، وينقسم إلى نوعين؛ الأول: يُسمّى الحمويّ؛ وهو أقلّ من القطع البغداديّ، والثاني: يُسمّى الشاميّ؛ وهو أقلّ من القطع الحمويّ[٤]، ثمّ يخبرنا البدريّ (ت ٨٩٤هـ/١٤٨٩م) أنّ القرطاس (الورق) من صناعات مدينة دمشق، وهو متميّز بحسن صقالته، ونقيِّ أوصاله، كما أنّ هذا القرطاس كان يُصدّر إلى مصر[٥]. وممّا يؤكّد

(١) ينظر صحف الكتابة وصناعة الورق في الإسلام: حبيب الزيّات، مجلة المشرق، ع٤، ص٤٦٨.

(٢) تاج العروس من جواهر القاموس: الزبيديّ: ١٦/ ٣٦٦.

(3) Wilkinson, John Gardner: Manners and Customs of the ancient Egyptians. London: JOHN MURRAY, 1837. p 153.

وينظر تاريخ التمدّن الإسلاميّ: جورجي زيدان:مج١/ ١/ ٢٥١.

(٤) ينظر صبح الأعشى: ٢/ ٤٧٦.

(٥) ينظر نزهة الأنام في محاسن الشام: ٢١٤ - ٢١٥.

وفرة مادّة الورق حتى غدت من صادرات المدينة، ما ذكره بدر الدين العينيّ في حوادث سنة (٨٠٦هـ/١٤٠٣م): إذ تحسَّنت الأسعار جداً، ووصل دشت الورق الشاميّ؛ وهو خمسٌ وعشرون فرخةً، إلى ستة عشر درهماً، وفي سنة (٨٢٣هـ/١٤٢٠م) تحسّنت أسعارُ الكتب جداً، ورخصَ الورق الشاميّ بعض الرخص؛ فبِيعَ الكفُّ منه بثلاثين درهماً فلوساً، والكفّة منه بخمس وعشرين فرخةً[١].

وعندما يزور الرحّالة الفرنسيّ بيير بولون دمشقَ في المدّة ما بين ١٥٤٦-١٥٤٩م، يُسجّل مشاهداته الآتية: « في المدينة دكاكين يُصنع فيها كاغد الورق الدمشقيّ؛ يحلِجون القطن فيفصلون عنه البذور، ولديهم لهذا الغرض صفحة من الحديد طولها قدم واحد، وثخنها مقدار إصبعين، يضغطون بها القطن فوق السندان، فتخرج عندئذٍ البذور المكوَّرَة من أمام القطعة الحديديّة»[٢]، وهذا النصّ بالغ الأهميّة؛ لأنّه يؤكّد أنّ صناعة الورق كانت لها عدّة دكاكين - على حسب تعبيره - داخل مدينة دمشق في القرن العاشر الهجريّ/ السادس عشر الميلاديّ، وأنّ المادّة الأوليّة لهذا الورق هي القطن، مع تبيان جزءٍ من عملية التصنيع اليدويّ لعجينة الورق، وتسمية بعض أدوات العمل.

وهنا يجب التنويه بنقطةٍ مهمّة؛ وهي: أنَّ الكتب التي تحدثت عن صناعة الأحبار والمداد، والليق، والورق العربيّ، كانت تستخدم ضميرَ المخاطبِ؛ بمعنى أنّه يمكن لأيّ شخصٍ أن يُصنِّع هذه الأدوات والموادّ بشكلٍ فرديّ متى ما توافرت لديه الإرادة والموادّ؛ فقد جاء في كتاب عمدة الكتّاب: « صفة عمل الكاغد الطلحيّ: تأخذ القنَّب الجيِّد الأبيض، فتنقّيه من قصبه، وتبُلّه وتسرِّحه بمشط حتى يلين..»[٣].

وعلى الرغم من أنَّ هذه الطريقة مُجهدة وتستنزف وقتاً طويلاً إلّا أنَّ هناك

(١) نقلًا عن حبيب الزيّات، صحف الكتابة وصناعة الورق. مجلّة المشرق، ص ٦٣٧.

(٢) دفاتر شاميّة عتيقة، مذكرات ومرويات ونوادر من تاريخ دمشق: أحمد أيبش: ٩٢.

(٣) عمدة الكُتّاب وعدّة ذوي الألباب المنسوب إلى المعزّ بن باديس، مجلّة معهد المخطوطات العربيّة، مج ١٧، ص١٤٧ - ١٤٨، وينظر إلى عنوان الباب الثاني عشر (في صناعة التجليد وعمل جميع آلاتها حتى يُستغنى عن المجلّدين). ص ١٥٣.

نفراً من العلماء رضيَ بهذا العناء؛ بغية ضمان الحصول على ورقٍ طاهر يَكتبُ فيه كلام الله عز وجلّ، فهذا عبد الرحمن بن عبد الله بن داود الخولانيّ الحرّانيّ (ت ١٠٠٣هـ/١٥٩٥م). صنّفَ تفسيراً، وكتبَهُ في مُصحفٍ جمع فيه صناعات المصاحف، وصيّره إماماً يُقتدى به، واصطنع ورقَهُ بيده؛ ليكون طاهراً بالإجماع، والحبر صنعه أيضاً للغاية ذاتها[١].

أماكن صناعة الورق في دمشق:

أُطلِقَ قديماً على أماكن صناعة الورق اسم (الوَرّاقة)[٢]، وأتى في النصوص التراثيّة أنّ دمشق توافر فيها أربع ورّاقات هي:

١. ورّاقة خارج باب الفراديس[٣]: جاء عند ابن عساكر (ت٥٧١هـ/١١٧٦م) في ترجمته لعليّ بن محمّد بن عليّ الأنطاكيّ (ت ٤٥١هـ/١٠٥٩م) «بلغني أنّ أبا الرضا تُوفّي ودُفن في الورّاقة خارج باب الفراديس»[٤].

٢. الورّاقة القديمة: وجاء عنده في تعداده للمساجد الكائنة شمالي المدينة «مسجد عند (عين كمشتكين)[٥] والورّاقة القديمة»[٦].

---

(١) ينظر خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر: المحبيّ: ٢/ ٣٦٠.

(٢) ينظر خَططُ دمشق، نصوص ودراسات في تاريخ دمشق الطبوغرافيّ وآثارها القديمة: صلاح الدين المنجد: ١١١.

(٣) باب الفراديس: من أبواب دمشق الأصليّة في الجهة الشماليّة لسور المدينة، يُنسب إلى محلّة الفراديس الواقعة خارج السور. (ينظر معجم دمشق التاريخيّ للأماكن والأحياء والمشيّدات ومواقعها وتاريخها كما وردت في نصوص المؤرّخين: قتيبة الشهابيّ: ١/ ٢٦) فهذه (الورّاقة) تقع خارج مدينة دمشق؛ لأنّ سور المدينة بأبوابه كان بمثابة حدود المدينة.

(٤) تاريخ مدينة دمشق: ٤٣/ ١٩٤.

(٥) عين كمشتكين: عين ماء كانت في محلّة مسجد الأقصاب خارج باب السلام. (ينظر معجم دمشق التاريخيّ: ٢/ ٩٢) وباب السلام من أبواب دمشق، فهذه العين أيضاً تقع خارج مدينة دمشق.

(٦) تاريخ مدينة دمشق: ٢ / ٣١٣.

٣. ورّاقة العوينة: وُجد على عتبة المدرسة النوريّة الكبرى بدمشق[١] نقشٌ مؤرّخٌ عام (٥٦٧هـ/١١٧٢م) عبارة عن وقفيّة لهذه المدرسة وجاء فيه: « والورّاقة بعُوينة الحمّى»[٢].

٤. الورّاقة الواقعة تحت المدرسة العزيّة البرانيّة: أنشأ صاحب صرخد الأمير عزّالدين أستادار المعظميّ سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٩م) مدرسةً فوق الورّاقة بالشرف الأعلى، شمالي ميدان القصر خارج دمشق[٣]، ويبدو أنّ هذه الورّاقة كانت ما تزال قائمةً سنة (٩٠٢هـ/١٤٩٧م)[٤].

ويُلاحظ ممّا سبق؛ أوّلاً: « إنّ هذه الورّاقات كانت في أماكن فيها عيون أو أنهار؛ فالأولى تقع عند (عين كمشتكين)، ونهر (العقربانيّ)، والثانية عند عين هي اليوم (عين عليّ)، والثالثة عند عين (الورّاقة) ونهر (بردى)؛ وذلك لاحتياجهم إلى الماء الكثير في صنع الورق»[٥]، وأغلب الظنّ لتسخير قوة الماء في تحريك الطواحين؛ لصناعة عجين الورق بكمياتٍ كبيرة وجهدٍ أقلّ[٦].

ثانياً: إنّ جميع هذه الورّاقات قامت خارج سور المدينة؛ وعليه فإنّ وصف الرحّالة الفرنسيّ بيير بولون (١٥٤٦- ١٥٤٩م) لدكاكين الورّاقين داخل المدينة لا ينطبق عليهن، والراجح أنّ الورّاقات الأربع – منذ هذا التاريخ - اختفت أو كادت، وتقهقرت صناعة الورق في دمشق خطوات، مرتدةً إلى التصنيع اليدويّ، ومن ثمّ إنتاج كمياتٍ محدودة.

---

(١) بشأن هذه المدرسة يُنظر الدارس في تاريخ المدارس: النعيميّ: ١/ ٤٦٦.

(٢) خَططُ دمشق: ١١٢. والعُوَينة: لفظة عامّيّة فصيحها العُيينَة بمعنى: العين الصغير، وعوينة الحمّى: موضع كان عند العقيبة، إلى الجنوب المجاور للطرف الشرقي من سوق صاروجا. أي خارج مدينة دمشق أيضاً.

(٣) ينظر الدارس في تاريخ المدارس: ١/ ٤٢٣.

(٤) ينظر مفاكهة الخلاّن في حوادث الزمان: ابن طولون: ١٤٢.

(٥) خَطط دمشق: ١١٢.

(٦) العلوم والهندسة في الحضارة الإسلاميّة، لبنات أساسية في صرح الحضارة الإنسانيّة: دونالد رهيل: ١٥٠.

ثمّ يقول محمّد كرد عليّ (١٨٧٦ - ١٩٥٣م): ولا نعلم في أيِّ زمنٍ انقرضت صناعة الورَاقة من الشام، ولكن بداية القرن العشرين قام رجل بيروتيّ من آل الباحوط بتأسيس معملٍ مهمٍّ لصناعة الورق، وأنتج ورقاً جيداً كورق النمسا وفرنسا، لكن معامل الورق في الغرب حاربته ورخّصت أسعار ورقها المُصدَّر إلى الشام؛ فاضطر لمجاراتهم وخفَّضَ سعره، لكنّهم ظلّوا يخفّضون من أسعارهم حتى اضطروه لإغلاق معمله[١].

القسم الثاني، أسواق الورّاقين في دمشق:

تحتاج كلّ صناعة في مرحلتها النهائيّة إلى سوقٍ لترويج منتَجها، والورَاقة أفرزت سوقاً عُرف بها سُمِّيَ سوق الورّاقين، وأقدم إشارة تخصّ هذا السوق بدمشق أوردها ابن عساكر (ت ٥٧١هـ/١١٧٦م) في ترجمته لأبي بكر الشبليّ (ت ٣٣٤ - ٣٣٥هـ/٩٤٦-٩٤٧م)؛ فقال: « وَجدَ الشبليّ في يوم الجمعة آخر ذي الحجة سنة أربعٍ وثلاثين وثلاثمائة خفّةً من وجعٍ كان به؛ فقال: تنشّط نمشي إلى الجامع، قلت: نعم، فاتّكأ على يدي حتى انتهيت إلى الورّاقين من الجانب الشرقيّ»[٢]، كما أورد خبراً يوضّح جانباً من جوانب لفظة (ورَّاق)[٣] في هذا الزمن في دمشق؛ عند ترجمته لأحمد بن محمّد بن سعيد بن عبيد الله الورَّاق المعروف بابن فطيس (ت٣٥٠هـ/٩٦١م)، فقال عنه: «كان ثقةً مأموناً، كان يُوَرِّق بدمشق، له خطٌ حسن»[٤].

وأورد المقدسيّ (ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) عند حديثه عن باب البريد - وهو الباب الغربيّ من أبواب الجامع الأمويّ- خبراً؛ حيث كان « له فرخان عن يمين وشمال... وعلى الباب والفرخين ثلاثة أروقة، كلّ بابٍ منها يفتح إلى رواق طويل... وفي هذه الأروقة موضع الورَّاقين، ومجلس خليفة القاضي»[٥].

---

(١) ينظر خَطط الشام: ٤/ ٢٤٤.

(٢) تاريخ مدينة دمشق: ٦٦/ ٧٨. وهو يقصد الجانب الشرقيّ من الجامع الأمويّ عند باب (جيرون).

(٣) أقول: جانباً؛ لأنّ ما مرَّ آنفاً بيّن أنّ هذه اللفظة يضيق مدلولها ويتّسع.

(٤) تاريخ مدينة دمشق: ٥/ ٣٦٠، وينظر معجم الأدباء: ١/ ٤٧٤.

(٥) أحسن التقاسيم: المقدسيّ: ١٥٨.

وفي ليلة الاثنين ١١ شهر رمضان سنة (٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) لمّا احترق سوق اللبّادين[١]، والكتبيّين وغيرها من الأسواق[٢]، الكائنة عند باب جيرون - وهو الباب الشرقي من أبواب الجامع الأموي- ذهبتْ للخلق أموالٌ عظيمة؛ منهم الفاشوشة الكُتُبيّ الذي كان «تاجراً بسوق الكتب بدمشق، له فيها دكان كبير، وكتب كثيرة، وخبرة تامّة بالكتب، يُقال: إنّه لمّا احترقت اللبّادين احترق له خمسة آلاف مجلّد، ولم يبقَ له غير الكتب التي كانت عند النّاس في العَرضِ أو في العارية»[٣].

وقُدِّرَت خسارتُه في هذا الحريق بما يقرُب من مئة ألف درهم، أمَّا فخر الدين ابن الكُتبيّ فقد احترقت له كتب بقيمة عشرة آلاف درهم، وأثناء مدّة إعمار ما تهدّم واحترق تمَّ نقل الأسواق إلى أماكن أخرى؛ فكان سوق تجَّار (جيرون) على باب الخشب، وسكنَ الزجَّاجون عند حمَّام (الصحن)، والذهبيّون في أماكن متفرقة، إلى أن تكامل البنيان وذلك في مدّة سنتين[٤].

وهذا يبيِّن ما يأتي:

أ. أنَّ مكان سوق الورّاقين في الثلث الأول من القرن الرابع كان شرقي الجامع الأمويّ، ثمّ انتقل إلى غربه نهاية القرن، وأنَّ مكان سوق الكتبيّين في القرن السابع الهجريّ كان شرقي الجامع.

ب. أنَّ اسم السوق في القرن الرابع الهجريّ كان سوق الورَّاقين، أمّا في القرن السابع الهجريّ فقد أصبح اسمه سوق الكتبيِّين.

ج. أنّ حوانيت الكتبيّين كانت تعرضُ جزءاً من كتبها؛ إمّا في حوانيت أخرى، أو مع دلّالين جوَّابين، كما كانت تبيع الكتب وتُعيرها.

---

(١) «اللبّادين: نسبة إلى عمل اللبود من الصوف، وهكذا يتلفّظ به العامّة ملحوناً، وهو في موضعين؛ أحدهما بدمشق مشرف على باب جيرون» (معجم البلدان: ٥/ ١٠)

(٢) ينظر تاريخ الإسلام: ٥١ / ٧.

(٣) الوافي بالوفيات: ٥/ ٢٢٣، و ينظر شذرات الذهب: ٧/ ٧٩٦.

(٤) ينظر تاريخ الإسلام: ٥١/ ٨.

وفي القرن الثامن الهجريّ تكثر الإشارات التي حدَّدت مكان سوق الورّاقين، والكتبيّين، وبدايتها في رمضان سنة (٧١٥هـ/١٣١٥م) حيث « كَملَت عمارة القيساريّة المعروفة بالدهشة عند الورّاقين واللبّادين»[١]، ثمّ مُنيتْ هذه المنطقة بحريقٍ عظيم ليلة ٢٦ شوّال سنة (٧٤٠هـ/١٣٤٠م)، «شمِلَ اللبّادين القبليّة، وما تحتها وما فوقها إلى عند سوق الكتب، واحترق سوق الورّاقين»[٢]، و ممّن كان له دكان في سوق الكتب بدمشق محمّد بن مكّي بن أبي الغنائم الدمشقيّ (ت ٧٤٢هـ/١٣٤١م)[٣].

وهناك إشارة مهمّة إلى مكان سوق الكتبيّين في هذه الحُقبة؛ فقد ذكر الصفديّ في ترجمته لمحمّد بن عثمان بن أبي الوفاء (ت ٧٣٠هـ/١٣٣٠م) أنّه « كان كثير الملازمة بسوق الكتب بجسر[٤] اللبّادين يوم الجمعة، ويقتني الكتب النفيسة، وملكَ منها، ومن الكرند شيئاً كثيراً»[٥]. ويجدر بنا التوقف عند لفظة (الكرند) لتبيان معناها؛ وهنا نستعين بترجمة الصفديّ لمحمّد بن عثمان بن أبي الوفاء ذاته في كتاب (الوافي بالوفيات)؛ حيث قال عنه: « له عناية باقتناء الكتب نفيسةً كانت أو غير نفيسة، يُلازم الكتبيّين كلّ جمعةٍ، وخلَّف منها جملةً»[٦] وبمقارنة الترجمتين عن الشخص نفسه يتبيّن أنّ (الكرند): هي النسخ العاديّة، أو المخرومة، أو ذات الحالة الفنيّة السيئة، وهذا المعنى لم ينوّه به قبلاً.

كذلك ورد عند الصفديّ في ترجمته ليوسف بن محمّد بن عثمان (ت ٧٢١هـ/١٣٢١م) أنّه كان دلّالاً على الكتب بجسر (اللبّادين) بدمشق، وقد رآه غير مرّةٍ

---

(١) البداية والنهاية: ابن كثير: ١٤/ ٧٤.

(٢) ذيول العبر في خبر من غبر: الذهبيّ: ٤/ ١١٧. وينظر تاريخ ابن قاضي شهبة: ابن قاضي شهبة: ٢/ ١١٥، الدارس في تاريخ المدارس: ٢/ ٣٠٧.

(٣) ينظر ترجمته في الدرر الكامنة: ٤/ ٢٦٤- ٢٦٦.

(٤) في الأصل؛ (بحسر)، والصواب ما أُثبت. ويقع هذا الجسر في اللبّادين قرب حي (جيرون). (ينظر معجم دمشق: الشهابيّ:١/١٤٤)

(٥) أعيان العصر وأعوان النصر: الصفديّ: ٤/ ٥٥٩.

(٦) الوافي بالوفيات: ٤/ ٦٦.

يُنادي على الكتب[١].

وفي سنة (٧٥٧هـ/١٣٥٦م) يصف ابن بطوطة الدهليز القائم أمام باب (جيرون) فيقول: «وبجانبَي هذا الدهليز أعمدةٌ قد قامت عليها شوارع مستديرة؛ فيها دكاكين البزّازين وغيرهم، وعليها شوارع مستطيلة فيها حوانيت الجوهريّين، والكتبيّين... ودكاكين لكبار الشهود... وبمقربة من هذه الدكاكين سوق الورّاقين الذين يبيعون الكاغد والأقلام والمداد»[٢]، وهذا النصّ يوضِّح ما يأتي:

أ- أنّ هناك سوقين مختلفين؛ الأول: سوق الكتبيّين، والثاني: سوق الورّاقين.

ب- أنّ كلا السوقين يقع شرقي الجامع الأمويّ عند باب (جيرون).

ج- أنّ سوق الكتبيّين بجسر (اللبّادين) كان أيضاً مكاناً للمناداة على الكتب بطريقة المزاد.

د- أنّ سوق الورّاقين اختصّ ببيع الورق، والأقلام، والمداد.

وفي هذا القرن تردُ إشارة مهمّة إلى وجود سوقٍ للورّاقين خارج مدينة دمشق في منطقة (الصالحية)، وهذا غير مستبعدٍ؛ لأنَّ هذه المنطقة كانت «مشحونةً بالزوايا، والترب، والمدارس»[٣] إذ يذكر ابن حجر العسقلانيّ عن محمود بن عبد الحميد بن سلمان بن معالي المعرِّيّ ثمّ الدمشقيّ (ت ٧٥٧هـ/١٣٥٦م) أنّه كان صاحب حانوت بالورّاقين بالصالحية[٤]، وفي عام (٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م) يتعرض الجامع الأمويّ لحريقه الثالث؛ نتيجة لاحتراق المنطقة الشرقيّة بما فيها سوق الورّاقين[٥].

---

(١) ينظر أعيان العصر: ٥/ ٦٦١. وأشكر الباحث المميّز Benedikt Reier الذي أرشدني إلى هذين النصّين.

(٢) رحلة ابن بطوطة أو تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار: ابن بطوطة: ١/ ٥٥.

(٣) نزهة الأنام: البدريّ: ١٩٢.

(٤) ينظر الدرر الكامنة: ٤/ ٣٢٧.

(٥) ينظر تاريخ البصرويّ: البصرويّ: ٩١.

ومن المفيد هنا ذكر تقسيم عبد الوهاب السبكيّ (ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م) للمهن المنضوية تحت لواء الوِرَاقة؛ وهي: الناسخ: وهو الشخص الذي ينسخ الكتب بالأجرة، والورَّاق: وقد حصره ببيع الورق فقط، والمُجَلِّد، والمُذَهِّب: الذي يُذهِّب المصاحف وغيرها من الكتب[١].

وبالتعريج على القرن التاسع الهجريّ في شهر ربيع الأول سنة (٨١٤هـ/١٤١١م)؛ ينقل النعيميّ عن ابن قاضي شهبة أنّ سوق الورّاقين كان في باب البريد، لكنّ في شهر رمضان انتقل بيع الكتب من باب البريد إلى الجامع الأمويّ إلى باب مئذنة العروس، ثم أُنكر هذا بعد جُمَع، وأُعيد إلى مكانه آخر الشهر[٢].

وفي سنة (٨٨٣هـ/١٤٧٨م) يضع ابن عبد الهادي رسالته (نزهة الرفاق عن شرح حال الأسواق)، وفيها يُفرِّق أيضاً بين سوق الورّاقين، وسوق الكتبيّين، وسوق مجلِّدي الكتب، وجميعهم عند باب البريد[٣]، لكن ابن عبد الهادي نفسه نبّهنا إلى أنّه اشترى بعض كتبه من سوقٍ مختلف عمّا ذكره، ولم نكن نظنّ أنّها تُباع فيه؛ إذ سجل على أحد مجاميعه قيد التملّك الآتي: «غالبه اشتريته من سوق السقطية»[٤]، وسوق السقطية المذكور يقع جوار قلعة دمشق، وكان مخصّصًا لبيع سقط المتاع ورديئه[٥].

وبالانتقال إلى القرن العاشر الهجريّ، ترد في ترجمة ابن طولون الصالحيّ، لمحمّد بن عثمان بن عيسى البَرميّ الكُتبيّ (ت ٩٠٩هـ/١٥٠٣م) إشارةٌ مهمّة ونادرة؛ حيث قال عنه: « تسبَّبَ ببيعِ الكتبِ، وتوَلَّى مشيَخَةَ سُوقِها سِنينَ عديدة، إلى أن تُوفِّي ووُجِدَ عنده أحمالٌ كثيرة»[٦]، وهذا نصٌّ صريح أنّ لحرفة الوِرَاقة شيخاً يتولّى أمورَها.

---

(١) ينظر مُعيد النعم ومُبيد النقم: السبكيّ: ١٣١ - ١٣٣.

(٢) ينظر الدارس في تاريخ المدارس: ٢/ ٣٠٨.

(٣) ينظر نزهة الرفاق عن شرح حال الأسواق: ابن عبد الهادي: ٢٢- ٢٦.

(٤) كتاب العلم: أبي خيثمة زهير بن حرب: مخطوطة المكتبة الوطنية بدمشق، مج ٣٨٥٦ت: [١/أ].

(٥) ينظر: معجم دمشق التاريخيّ: قتيبة الشهابيّ: ٢/ ٣٨. وانظر أيضًا
Konrad Hirschler. A Monumentto to medieval Syrian: 72

(٦) نقلًا عن السحب الوابلة: ١٠٠٠- ١٠٠١.

ويحسن بنا التوقّف عند شيخ الحِرفة هذا؛ فمن جميل الحظّ أنّ أحد علماء دمشق في القرن التاسع عشر قدّم بحثاً لمؤتمر المستشرقين، المنعقد بـ(هولاندا) عام ١٨٨٣م، تناول فيه هيكلية إدارة الحِرف في دمشق، فجاء في كلامه عن رتبة شيخ الحرفة: أنّ لكلّ حرفةٍ شيخاً ينتخبه شيوخ الكار[١]، ممّن اشتهر بحسن الأخلاق والطويّة، وامتاز بمعرفة أصول الحرفة، ولا يُشترط به كونه أكبرهم سناً، أو كونه من الشيوخ فعلاً، فيجوز أن يكون شاباً إلّا أنّه حَسن الصفات، عالمٌ بأمور الكار، وجيهٌ عند أرباب الحكومة.

وفي بعض الحِرف تنتقل المشيخة بالإرث من الأب إلى الابن، وهذا لا يخالف مبدأ الانتخاب؛ لأنّ الوارث إنْ لم يكن مستوفياً للشروط لن يقرّ شيوخ الكار بمشيخته، وسينتخبوا غيره دون مراجعة، أمّا مدّة مشيخة الشيخ فغير محدّدة؛ يبقى فيها مادام لم يصدر منه ما يُوجب استبداله.

ومن حقوق الشيخ عقد مجالس لصالح الحرفة يترأسها ويسهر على حفظ ارتباط الكار، ويقاصّ من أخلَّ بحقّ الصنعة، ويُكلِّف بإيجاد شغلٍ للفَعَلَة؛ فيُوصي بهم عند المعلّمين، وله وحده الحقّ بأن يشدّ[٢] بالكار المبتدئين الماهرين فيصيرون صنّاعاً أو معلّمين، ومعه تكون مخابرة الحكومة فيما يتعلق بحرفته.

وانتخابه يكون على الصورة الآتية: عندما يفرغ مركز المشيخة من الشيخ يجتمع شيوخ الكار، ويُعيِّنون من يخلفه بالمذاكرة والاستحسان، ولا بدّ أن يكون الانتخاب بموافقة جميع الأصوات لا بأكثريّتها، وفي حال لم يكن هناك إجماعٌ يُحال الأمر إلى شيخ المشايخ الذي يُعيِّن أحد المرشّحين.

أمّا تصديق شيخ المشايخ على شيخ الحرفة فيتمّ هكذا: يذهب أهل الحِرفة من الشيوخ والمعلمين والصنّاع المشدودين بشيخهم الجديد إلى شيخ المشايخ ويقولون

---

(١) كار (فارسيّة) وجمعها كارات: صناعة، حرفة، مهنة. (ينظر تكملة المعاجم العربيّة: رينهارت دوزي: ٩/ ١٤).

(٢) عن طقوس الشدّ ينظر نبذة تاريخيّة في الحِرف الدمشقيّة: إلياس عبده قدسي: ١٥.

لـه: إنّنا عيّنا فلاناً علينا؛ فيأخذ شـيخ المشـايخ بتلاوة بعض آيات القـرآن الكريم، ثمّ يُقدِّم إليـه بعـض النصائـح؛ لإدارة حِرفتـه بالعـدل والاسـتقامة، ثمّ يسـلِّمه العهد؛ بـأن يُمَدّ أمام الشـيخ بسـاطٌ أخضـر؛ تـذكاراً ببسـاط النبيّ ﷺ، وعليـه يُسـلّم العهد إلى الشـيخ الجديد أمـام الحضـور بصـوتٍ منخفـض، وبعد ذلك يُقال عن شـيخ الحِرفة الجديـد أنّه دخل على بسـاط الشـيخ[1]. وعلـى الرغـم مـن أنّ هـذا التوصيـف لمنصـب شـيخ الحِرفـة جـرى في القـرن الثالـث عشـر الهجريّ/التاسـع عشـر الميـلاديّ، إلّا أنّنـا نعتقـد بـأنّ كثيـراً ممّا جاء فيـه هـو مـوروث مـن القرون السـابقة، فـإنْ لم تكن الصـورة مطابقـةً تماماً لوضع شـيخ الورَّاقيـن فـي القـرن العاشـر الهجريّ فإنّهـا تعطي صـورةً تقريبيّة له.

كمـا وجـد عبـد الرحمن فرفور قيدَ تملّكٍ مهمٍّ على نسـخةِ (روضـة الطالبين) للنوويّ؛ جـاء فيـه: «انتقـل هـذا المبارك والـذي قبله... من الشـيخ شـمس الدين بن [كـذا] الحاج أحمـد حميـدة نزيل دمشـق بمدرسـة الصابونيّ إلـى مُلك عبد الله بن محمّـد العجلونيّ، من سـوق الكلاسـة[2] المباركة، بثمن للجزأين مبلغه سـتين درهم[كذا] عثمانيّة بتاريخها الجمعـة المباركة ثاني عشـرون[كذا] ذي الحجّة الحرام سـنة ٩٤٦هـ

الشـهود محمّـد محـبّ الديـن بـن أحمـد الحمصـيّ الـدّلّال بسـوق الكتـب (توقيـع). محمّـد إسـماعيل العجلونـيّ (توقيـع)»[3].

وتأتـي أهمّيـة هـذا القيـد مـن تأكيـده علـى أن زقـاق (الكلاسـة) الـذي يقـع شـمالي الجامـع الأمـويّ كان سـوقاً لبيع الكتب بطريقـة الدِلالة، وأنّه ذكر اسـم أحد دلّالي الكتب فـي دمشـق فـي القـرن العاشـر الهجريّ، كما كشـف عن سـعر الكتـاب في هـذا التاريخ، إضافـة إلـى توثيق عمليـة البيع علـى الكتاب.

---

(١) ينظر نبذة تاريخيّة في الحرف الدمشقيّة: ١٦.

(٢) زقاق الكلاسة: لا يزال في حيّ الكلاسة اليوم، شمالي الجامع الأمويّ، بين المدرسة الجقمقيّة وباب البريد. (ينظر معجم دمشق التاريخيّ: ١/ ٣٥٢)

(٣) قواعد تقييم المخطوطات القديمة في صناعة المخطوط العربيّ الإسلاميّ من الترميم إلى التجليد: عبد الرحمن فرفور: ٢٨١.

ويذكر أبو بكر بن منصور بن بركات بن حسن العمريّ الدمشقيّ (ت ١٠٤٨هـ/ ١٦٣٨م) حادثةً جرت معه في محرّم سنة (٩٨٩هـ/١٥٨١م) يحسن إيرادها ثمّ التعليق عليها؛ إذ قال: «دخلتُ إلى (الكلاسة) المُعدَّة لبيع الكتب وَرَاء الحَائِط الشماليّ من الجامع الأمويّ بدمشق، فرأَيْتُ بيدِ الدلّال مقامات الحريريّ، وكتاب (لَذَّة السّمع فِي وصف الدمع) للصلاح الصَّفَدِيّ يذكر فِيهِ محاسن العين ومعايبها؛ فزدت فِي الكتَابين واشتريتُهما من صَاحبهمَا؛ وهو القَاضي الشوبكيّ الحنبلِيّ، وجلستُ أعدّ لَهُ الثّمن؛ إِذْ دخل الشيخ إِسْمَاعِيل النابلسيّ الشَّافِعِيّ وكان شرس الأَخلَاق سريع الغضب؛ فَلَمَّا أبصر الكتَابين قَال: بكم صارا؟ فَقَال لَهُ: إنّ هَذَا الشَّاب اشتراهما بكذَا، ووقعَ إيجابٌ وقبولٌ بين البَائِع وَالمُشْتَرِي، قَالَ لَهُ: عَليّ بِقِطْعَةٍ زَائِدَة؛ فخاف الدلّالُ من حنقه وَسكت، فَلم يسعَني إِلَّا أَنِّي قلتُ: وَقطعَة أُخْرَى، فَقَالَ الشيخ: وثالثة، قلت: ورابعة، إِلَى أَن وصلت زيادَتي إلى عشرة؛ فَأَغلظ لي الشيخ كلاماً قبيحاً؛ فاستخرتُ الله وَأخذت دراهمي وانصرفت وعندي ما عندي؛ فَإِنَّه شيخ الإِسلام، وذُو جاه عظيم عند الحُكَّام، وَلا أقدر على مقاومته، فَاشْترى الكتابين المذكورين»[1].

وهذا يعني استمرار وجود سوق بيع الكتب في زقاق (الكلاسة)، وأنّ البيع فيه عن طريق المزاد؛ إذ يُكلِّف صاحب الكتاب شخصاً ما، هو دلّالُ الكتب بالمناداة عليه، ويُعطى الكتاب لصاحب أعلى سعر، وهنا تنتهي مهمّة الدلّال وتُعقد الصفقة بين صاحب الكتاب والمشتري مباشرة، ومن الطبيعي بعد إبرام الصفقة أن يُنفَحَ الدلّالُ مبلغاً متّفقاً عليه.

وأغلب الظنّ أنّ هذا السوق بأسلوبه القائم على المزاد، والعرض بواسطة الدلّال، كان ملازماً لقيامَ حوانيت ثابتة في سوق الكتبيِّين، وربما كان أصحاب تلك الحوانيت يُرسلون جزءاً من كتبهم لتُعرض بسوق المزاد.

وبمقارنة ما تقدّم يتّضح أنّ مهنة الوِرَاقة تقاسمتها فروع أربعة لكلٍّ منها استقلاليته؛ فالورّاقون اختصّوا ببيع الورق والأقلام والمداد، والكتبيّون ببيع الكتب وإجارتها ونسخها

(١) خلاصة الأثر: المحبي: ١/ ١٠١ - ١٠٢.

أيضاً[١]، والمجلِّدون بتجليد الكتب، وهناك صانعو الورق. كما يتّضح أنّ سوق الورّاقين بدمشق لم يبرح جوار جامع بني أميّة؛ فتناوب ما بين باب (جيرون) في الجهة الشرقيّة، و(باب البريد) في الجهة الغربيّة، إضافة إلى سوقٍ لبيع الكتب بطريقة المزاد في زقاق (الكلاسة) شمالي الجامع الأمويّ، كما تمّ الكشف عن وجود سوق للورّاقين في منطقة (الصالحية) بجبل (قاسيون)، وأنّ لهذه المهنة شيخاً مسؤولاً عنها يقضي بالخلافات الناشئة فيها، ويمثّل صلة الوصل بين أهل المهنة وأرباب الحكومة.

الوِرَاقة في دمشق في القرن الثالث عشر الهجريّ حتى منتصف القرن الرابع عشر الهجريّ:

الباحث عن أخبار الوِرَاقة في دمشق في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، كالباحث عن الكبريت الأحمر؛ فالمصادر المتوافرة لهذه الدراسة لم تُسعف إلّا ببعض الشذرات عن أناسٍ باعوا كتبهم في دمشق، لكن من دون تحديدٍ لمكان البيع. فهل كان البيع في سوق الكتب، أم في البيوت؟[٢].

وبالانتقال إلى القرن الثالث عشر يُخبرنا محمّد كرد عليّ عن نشأة أستاذه طاهر الجزائريّ (١٨٥٢ - ١٩٢٠م) أنّه كان مغرماً منذ نشأته بجمع الكتب، وهو لَمّا يزلْ في المدرسة الإبتدائية؛ فكان يشتري الدشوت والرسائل الخطيّة من دُريهمات كان يُعطيها له والده، وكانت هذه الكتب والرسائل تُباع بـ(الكلاسة) شمالي الجامع الأمويّ؛ على مقربةٍ من ضريح صلاح الدين الأيوبيّ[٣].

وعندما أراد الشيخ طاهر تحبيب فقهاء دمشق بابن تيمية، قام بنشر كتب الأخير بينهم وهم لا يدرون؛ فكان يستنسخ رسائله وكتبه، ويرسلها مع من يبيعها إليهم في

---

(١) إذ كانت الحسبة على الكتبة: الجودة وعدم التعفيش. ابن عبد الهادي: كتاب الحسبة، مجلّة المشرق، ع ٣٥، ص٣٨٩. وعفشه عفشاً أي جمعه (ينظر لسان العرب: ٣٠٤)، والمقصود: على الكتبة تحرّي الدقة في النقل، والوضوح في الكتابة.

(٢) ينظر سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر: المراديّ: ١/ ١٥٦، ١٦٣، و ٢/ ٤٩.

(٣) ينظر كنوز الأجداد: محمّد كرد عليّ: ٦.

سوق الورّاقين بأسعارٍ معقولة فيطالعونها، وبذلك وصل إلى غايته[١]. إلاّ أنّ محمّداً كرد عليّ، لم يُحدِّد مكان سوق الورّاقين هذا؛ أ هو سوق (الكلاسة) نفسه، أم سوقٌ آخر؟

إضافة إلى ذلك هناك نقطة مهمّة فيما يخصّ تجارة الكتب؛ إذ كثيراً ما كانت تجري عملية البيع في البيوت بعيداً عن الأسواق؛ وهذه العملية من الصعب ضبطها، أو قياس حجمها؛ وكمثالٍ على ذلك ما اعتاده جمال الدين القاسميّ (١٨٦٦ - ١٩١٤م) من شراء بعض نوادر المخطوطات من الشيخ طاهر الجزائريّ؛ فقد سجَّلَ في مذكراته اليوميّة بتاريخ (٢٢ جمادى الأولى ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م): « بعد العشاء زارنا الشيخ طاهر واشتريت منه تراجم الشيعة، والتبصرة بمجيدي»[٢]، وهنا إشارة إلى أسعار الكتب في ذاك الزمن[٣]. ثمّ يُشير جمال الدين القاسميّ إلى أنَّ الشيخ طاهر الجزائريّ باعَ جزءاً من كتبه في داره، قبل مغادرته دمشق إلى مصر[٤]، وذلك عام ١٩٠٧م.

ويسرد محمّد كرد عليّ (١٨٧٦ - ١٩٥٣م) قصةً حدثت له أيام شبابه المُبكِّر؛ فيقول:«أذكر أنَّ والدي ابتاع لي كتباً من إحدى التركات، وكانت تُباع التركات في الجامع الأمويّ بعد صلاة الجمعة، وغُرِّم فيها ألفاً وخمسمائة قرش»[٥]، وهذا النصّ يُبيِّن أنَّ الجامع الأمويّ ذاته، كان مكاناً لبيع التركات، التي تكوِّن المكتبات الخاصّة جزءاً

---

(١) ينظر كنوز الأجداد: ٩.

(٢) جمال الدين القاسميّ وعصره: ظافر القاسميّ: ٤٣٢. والمجيدي المصكوك عام (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م) يوافق جلوس السلطانين مراد الخامس الذي استمر ملكه ثلاثة شهور وثلاثة أيام فقط، وعبد الحميد الثاني الذي خلفه، ومن ثمّ من الصعب تحديد العهد الذي ضُربت فيه هذه العملة، مع أنّ الراجح هو عهد عبد الحميد الثاني. والمجيدي يُعادل عشرين قرشاً. (ينظر أسواق دمشق القديمة ومشيداتها التاريخيّة: قتيبة الشهابيّ: ٣٢ - ٣٣)

(٣) ولمعرفة القيمة الشرائيّة للمجيدي يقول سعيد القاسميّ: إنّ الذراع من الحصرِ الملونة المنقوشة، النفيسة جداً، المجلوبة من قرية (بلودان)؛ إحدى قرى الشام، كان ما ينيف على عشرة قروش (ينظر قاموس الصناعات الشاميّة: ٩٩)؛ أي أنّ الحصيرة البلودانيّة بمساحة خمسة أذرع كان ثمنُها مجيديين ونصف؛ لأنّ المجيدي = ٢٠ قرشاً.

(٤) ينظر جمال الدين القاسميّ وعصره: ٤٣٧.

(٥) المذكرات: محمّد كرد عليّ: ١/ ٣٧.

منها في بعض الأحيان، ويمكن تقدير عدد الكتب التي حصّلها في ذلك اليوم بمئة وخمسين كتاباً؛ بناءً على أنّ كلّ كتابين بمجيدي.

ومن جميل الطالع أن يُسجِّل قاموس الصناعات الشاميّة[١] الحِرَف التي تقاسمت مهنة الوِرَاقة بدمشق نهاية القرن التاسع عشر؛ فكانت كالآتي:

١. الحبَّار: «ويُقال له حبريّ، وهو اسمٌ لمن يصنع الحبر ويبيعه في بلدنا، وهو المراد هنا، وثمنه على حسب حُسنه وجودته، ثمّ منه ما يكون مائعاً؛ وهو الأروج للمبيع، ومنه ما يُعمل جامداً يابساً محبّباً كرأس الأنملة أو الحصاة الصغيرة، يُوضع في نحو كيس؛ لأجل الختم به بلا مشقّة، ومنه ما يَردُ من البلاد كالمسمى بـ(الكوبيا)؛ فيُجلب من أوربا في حُققٍ صغيرة من خزف بنفسجيّ اللون، إلى الحُمرة أقرب. وهذا الجنس رائجٌ جداً، يستعمله التجّار للكتابة، ولطبع المكاتب.

وقد ينوّع الحبر ألواناً؛ فيكون أحمر، وأخضر، وأزرق، ومذهّباً، وشبيهاً بالذهب؛ كالنحاس، وغير ذلك. وبالجملة فهذه الصنعة من ضروريات الحضارة وغيرها غالباً، وأربابها يتعيّشون منها على حسب حالهم»[٢]، وهذه هي الحِرفة الوحيدة العائدة إلى القرن التاسع عشر من حِرف الوِرَاقة المذكورة في هذا القاموس؛ لأنّ مؤلّف القسم الأول تُوفّي سنة ١٩٠٠م، وانتهى عمله فيه إلى حرف السين[٣].

٢. الظرَّاف: هو «بائع ظروف المكاتيب، والأوراق المُعدَّة لها أيضاً، مع كافّة ما يلزم للكتابة؛ من أقلامٍ، وريَش حديد، وأقلام الرصاص، وأنواع الورق، وأشكال الحبر. وهي حِرفة ليست دنيئة تُكسب ربحاً حسناً يتعيّش منها كثيرون. ولها

(١) لقد بُدئ العمل بهذا القاموس سنة ١٨٩٢م، وانتُهي العمل منه سنة ١٩٠٧م. (ينظر قاموس الصناعات الشاميّة: ١/ ٢٨، ٣٨)

(٢) قاموس الصناعات الشاميّة: ١/ ٨٩.

(٣) ينظر قاموس الصناعات الشاميّة: ١/ ٢٨.

رواجٌ تـامّ، وحوانيتهـا عديـدة»[١]، لكنّـه لـم يُحـدِّد أماكـن هـذه الحوانيـت؛ فربما كانـت متفرّقة ولا تُشـكّل سـوقاً بنفسـها.

٣. المجلِّـد: «هـو مـن يجلِّد أصناف الكتـب والدفاتر، فيجمع منهـا كراريس، ويضمّها لبعضهـا، غِـب ضبطهـا، ويضعهـا ضمـن آلـة تُعـرف بالمكبـس فتكبسـها؛ فـإن زاد شـيء مـن الـورق عـن بعضـه يقصـه بالمقـراض، حتـى يسـاوي بعضـه، وإذا كان الزائـد قليـلاً ينحتـه فـي مبرد مـن حديد؛ حتى يسـاوي بعضه، وحينئـذٍ يضع ذلك المصنـوع ضمـن جلـد مـن ورق سـميك يُعـرف بـ(الكرتـون) ملصـوق عليـه مـن أصنـاف الـورق الملّـون، أو يصنـع جلداً رقيقـاً أو قماشـاً، وذلك بغايـة الضبط، ثمّ يحبكـه فـي بعضـه أو يخيطـه. ومـن الناس مـن يرغب فـي تذهيب جلـد الكتاب إذا كان نفيسـاً. وهـي حرفـة تنتـج ربحاً متوسـطاً، وأهلوها قليلـون»[٢]. هنا يُخبرنا عـن بعـض الآلات والمـواد المسـتخدمة في هـذه الحرفة في دمشـق نهاية القرن التاسـع عشـر وبدايـة القـرن العشـرين؛ وهـي: المكبـس، والمقـراض، والمِبـرد الحديـديّ، ثمّ يسـرد خطـوات هـذه العملية[٣].

٤. الـورّاق: «كان الـورّاق يُطلـق قديمـاً علـى المُجلِّـد، يُلصِـق الأوراق بعضهـا ببعـض بجانبـي الكتـاب، وذلـك قبـل أن يحدث هذا المقـوّى المجلوب مـن معامله. وقد يُطلـق الآن علـى الظـرّاف؛ وهو بائـع الظروف والـورق بأنواعه»[٤]، أي أنَّ تسـمية الـورّاق نهايـة القرن التاسـع عشـر وبداية القرن العشـرين، انضوت تحت تسـمية أخـرى؛ هـي: الظـرّاف، واقتصـرت على بيع مـوادّ الكتابـة وأدواتها.

٥. الصحّـاف: «هـو بائـع الكتب على أنواعهـا وأصنافها، خطّاً وطبعـاً. ولبائعي الكتب

(١) قاموس الصناعات الشاميّة: ٢/ ٣٠٠.

(٢) قاموس الصناعات الشاميّة: ٢/ ٤١٦ - ٤١٧.

(٣) قارن مع الباب الثاني عشر في صناعة التجليد وعمل جميع آلاتها في القرن الخامس الهجري في: عمدة الكتّاب وعدّة ذوي الألباب. المنسوب إلى المعزّ بن باديس: ١٥٣- ١٦٦.

(٤) قاموس الصناعات الشامية: ٢/ ٤٩٥.

بدمشق سوى[١] سوق مخصوص يُعرف بـ(المسكية)؛ وهو غربي جامع بني أمية الشهير، يتعاطون به بيع الكتب. وهي حرفة شريفة، تنتج ربحاً وافراً»[٢].

٦. الكُتبيّ: « بائع الكتب؛ وللكتب سوق بدمشق يُعرف بـ(المسكية) عند باب الجامع الأمويّ الشهير المعروف بباب (البريد)، يبيعون به الكتب؛ وهي حرفة قديمة شريفة، وقد ازداد رواجها بواسطة كثرة المطابع الحديثة في هذا العصر، ولباعتها أسلوب في الإتجار بها، والربح منها»[٣]. أي أنَّ بائع الكتب المخطوطة والمطبوعة في دمشق نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كان له تسميتان؛ الكُتبيّ، والصحَّاف. وأنَّ سوق بيع الكتب كان في (المسكية)؛ وهو السوق الوحيد المخصّص لهذا الغرض. أي اختفى سوق (الكلاسة) الذي كان قائماً في الستين من القرن التاسع عشر، أمّا حوانيت بيع موادّ الكتابة وأدواتها فكانت كثيرة.

سوق المسكِيّة: وُصف سنة ١٩٨٩م بأنه سوق صغير مكشوف، يحتلّ منطقة معبد (جوبتر) الدمشقيّ عند الطرف الشرقيّ لسوق الحميديّة في باب البريد[٤]. وقد مرَّ ذكره آنفاً؛ وأنّ اسم هذا السوق منذ أواخر القرن الرابع الهجريّ حتى نهاية القرن التاسع الهجريّ كان سوق الورّاقين، أو الكتبيّين.

والغريب في الأمر أنّ تسمية سوق (المسكيّة) سُمِعت للمرّة الأولى في العهد العثمانيّ، وغلبتْ تسمية الكتبيّين والورّاقين، رغم أن هذا السوق مختصّ ببيع الكتب وموادّ الكتابة وأدواتها منذ نشأته؛ ويغلب على الظنّ أنّ مُزاحَمة باعة المسكِ -وهو طيبٌ من دم دابّة تسمّى غزال المسك- لأهل السوق، دفع بهذه التسمية إلى الشيوع

---

(١) هكذا في الأصل، وكي تستقيم العبارة يجب حذف كلمة (سوى)، أو إضافة ليس. لتصبح العبارة: «وليس لبائعي الكتب بدمشق سوى...».

(٢) قاموس الصناعات الشاميّة: ٢/ ٢٦٩ - ٢٧٠.

(٣) قاموس الصناعات الشاميّة: ٢/ ٣٨٣- ٣٨٤.

(٤) ينظر أسواق دمشق: ١١٨.

على ألسنة الناس[١].

تجارة المخطوطات في دمشق في القرن الثالث عشر حتى منتصف القرن الرابع عشر:

بادئ ذي بدء لا بدَّ من التنويه بنقطة مهمّة؛ وهي: لم يصدر في سورية قانون يتطرق إلى حماية المخطوطات قبل شهر آذار عام ١٩٢٦م إبّان الانتداب الفرنسيّ؛ وهو المعروف بنظام الآثار القديمة في سورية ولبنان قرار رقم ٢٠٧، وتبعاً لهذا القرار تُعتبر جميع المنتوجات التي صنعتها يد الإنسان قبل ١٧٠٠م (١١٠٧هـ) « آثاراً قديمة... ؛ الآثار القديمة هي غير منقولة أو منقولة...، تعتبر آثاراً قديمة منقولة كلّ الآثار التي لا تدخل في الفئات السابقة؛ وعلى الأخصّ التماثيل، والنقوش الناتئة، والخطوط، والنقود، والإيقونات، والأسلحة، والحُليّ، والنقوش المحفورة، والأواني، والمخطوطات، والصور والنواميس..»[٢]. وعليه فإنّ المخطوطات المنسوخة بعد سنة (١١٠٧هـ/١٧٠٠م)؛ أي جميع مخطوطات القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريّين لا ينطبق عليها هذا القرار.

أمّا العقوبات الرادعة الخاصّة بالإتجار بالمخطوطات العائدة إلى ما قبل القرن الثاني عشر الهجريّ، المنصوص عليها في هذا القرار فهي: «المادّة العاشرة: على كلّ شخصٍ يكون لديه في تاريخ وضع هذا القرار موضع التنفيذ أشياء منقولة، لها صبغة الآثار القديمة كما هي محدّدة في المادّة الأولى، أن يُرسل في مدّة اثني عشر شهراً إلى رئيس الدولة صاحبة الشأن قائمةً على ورقٍ [بدون ورق بول][٣] عن نسختين؛ تحتوي على وصفٍ مفصّل لهذه الأشياء، تُعطى بعد التدقيق إلى صاحب البيان إحدى هاتين القائمتين المثبِتة لحقّ الملكيّة. **كلّ مبادلةٍ وكلّ بيعٍ أو تنازل تقبل به الدولة**

(١) ينظر أسواق دمشق: ١١٨ - ١١٩. ويورد المؤلّف نبذةً مهمّة عن نوعيّة الكتب التي كانت تُباع في هذا السوق سنة ١٩٨٩م، وجلّها موضوعات تتعلّق بالعفاريت والجانّ والشعوذة.

(٢) نظام الآثار القديمة في سورية ولبنان قرار ٢٠٧، مجلّة المجمع العلميّ العربيّ، مج٦، ع٨، ص٣٦٠.

(٣) هكذا العبارة في الأصل.

بخصوص أثرٍ قديم يجب أن يدوّن في شهادةٍ وصفيّةٍ محرّرة من نسختين؛ تُسلّم إحداهما إلى صاحب الشأن دون دفع مصاريف، وتُحفظ الثانية في أوراق الدولة... بعد انتهاء مدّة الاثني عشر شهراً المنصوص عليها في الفقرة الأولى من هذه المادّة يجوز ضبط كلّ أثرٍ قديم منقول غير مقيّدٍ في قائمة مدقّقة مثبتة حقّ الملكيّة، ويعتبر أنّه ملكٌ للدولة إلى أن تُقام الحجّة بخلاف ذلك»[١].

أي أنَّ هذا القانون لم يجرِّم عملية الإتجار بالمخطوطات العائدة إلى ما قبل القرن الثاني عشر الهجريّ، إذا ما كان هذا الإتجار قد جرى بعد تسجيل المخطوط، وموافقة الدولة على عملية البيع. وعلى الرغم من أنَّ هذا القانون لم يكن حاسماً إلا أنَّ الوطنيّين الغيورين على هذا التراث وجدوا فيه بعض الخير؛ ولهذا قال محمّد كرد عليّ: « فالمأمول بعد القرار القاضي بأن لا تخرج الآثار والمخطوطات إلى خارج القطر إلّا بعد أن تنظر الحكومة فيها؛ لتأخذ منها ما يهمّ البلاد الاحتفاظ به، سيكون منه بعض النفع؛ لإكمال مجاميعنا من الأسفار والأثار، على أن تسمح موازنتا المجمع ودار الآثار بابتياع هذه النفائس من أصحابها فيما إذا حظرت الحكومة إخراجها»[٢].

أمّا القانون الصادر عام ١٩٦٣م فيجب التنويه بأنّ هذا القانون خاصٌّ بالآثار أيضاً، وأُدرجت المخطوطات ضمنه كنوعٍ من الآثار المنقولة، فجاء فيه:

المادة ٣/ الفقرة ب- «الآثار المنقولة: هي التي صُنِعت لتكون بطبيعتها منفصلة عن الأرض أو المباني التاريخيّة، والتي يمكن تغيير مكانها؛ كالمنحوتات، والمسكوكات، والصور، والنقوش، والمخطوطات، والمنسوجات، والمصنوعات، مهما كانت مادّتها، والغرض من صنعها، ووجوه استعمالها»[٣].

---

(١) نظام الآثار القديمة في سورية ولبنان قرار ٢٠٧، مجلّة المجمع العلميّ العربيّ، مج٦، ع٨ ، ص٣٦٣.

(٢) التقرير الخامس بأعمال المجمع العلميّ العربيّ في سنة ١٩٢٨م، محمّد كرد عليّ، مجلّة المجمع العلميّ العربيّ، مج٩، ع١، ص ٢.

(٣) قانون الآثار الصادر بالمرسوم التشريعيّ رقم ٢٢٢ تاريخ ١٩٦٣/١٠/٢٦: ٦.

المادّة ٣٢- «للهيئات والأشخاص حقّ اقتناء الآثار المنقولة والاحتفاظ بها، على أن تُعرض على السلطات الأثريّة لتسجيل الهامّ منها. ويُعدّ حائز الأثر المسجّل مسؤولاً عن المحافظة عليه، وعدم إحداث أيّ تغييرٍ فيه؛ فإذا تعرّض الأثر للضياع أو التلف وجب على المقتني إخطار السلطات الأثريّة في الحال، أمّا الأثر غير الهامّ فيُسمح لصاحبه بالتصرّف فيه؛ بموجب تصريحٍ خاصّ تُعطيه السلطات الأثريّة، على أن تُنظّم قواعد التسجيل وعدمه بقرارٍ وزاري»[١].

المادة ٤٠ - «لا يجوز نقل الآثار من مكانٍ إلى آخر دون تصريحٍ من السلطات الأثريّة، وعلى السلطات أن تقدّم خبرتها لنقل هذه الآثار بالطريقة الفنيّة. ويُشترط بشأن حيازة الآثار ونقلها في النطاق الجمركيّ المحدّد أصولاً تنظيم المستندات الجمركيّة التي تقتضي بها النصوص النافذة، ويخضع نقل الآثار عبر القطر العربيّ السوريّ إلى موافقةٍ مسبقة من السلطات الأثريّة»[٢].

وهكذا يتّضح أنّ هذا القانون غير مختصٍّ بالمخطوطات بحدّ ذاتها، ولا يراعي خصوصيتها، وهو غير رادعٍ؛ إذ تتوقف مسؤولية مالك المخطوط بالإبلاغ عن تلفه أو فقده، دون إشارةٍ لمحاسبته. وفي حال كان الأثر غير مهمٍّ؛ فللفرد حرية التصرف فيه بموجب تصريح. فهل هناك مخطوط غير مهمّ؟ وما هي معايير أهميته؟ كلّ هذه الأسئلة لم يُجب عنها القانون، ومن ثمّ تُعدّ هذه الفقرة ثغرةً في القانون، ويمكن التلاعب من خلالها.

وربما هذا ما دعا (حلقة حماية المخطوطات العربيّة وتيسير الانتفاع بها)، التي عُقدت في بغداد برعاية المنظمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم من ١٨ - ٢٥ تشرين الثاني ١٩٧٥م، بعد أن لمست قصوراً في القوانين العربيّة الخاصّة بحماية المخطوطات والإتجار بها إلى أن توصي بـ:«أنْ يقوم معهد المخطوطات العربيّة

(١) قانون الآثار الصادر بالمرسوم التشريعيّ رقم ٢٢٢ تاريخ ١٩٦٣/١٠/٢٦: ١٣.

(٢) قانون الآثار الصادر بالمرسوم التشريعيّ رقم ٢٢٢ تاريخ ١٩٦٣/١٠/٢٦: ١٥. معدل بالقانون رقم١ تاريخ ١٩٩٩/٢/٢٨.

بتكوين لجنةٍ فنيّة مشتركة من المتخصّصين في شؤون المخطوطات العربيّة والتراث العربيّ، ومن القانونيّين المتخصّصين في وضع التشريعات القانونية؛ وذلك لوضع مشروع قانونٍ عربيّ لحماية التراث العربيّ المخطوط، على أن تنطلق هذه اللجنة في عملها من الأسس والمنطلقات العامّة الموضّحة في الملحق رقم ١، كما تُوصي الحلقة بأن يعمل المعهد على حثّ الدول العربيّة على إصدار قوانينها الخاصّة بحماية المخطوطات فيها، مع الاسترشاد بالمشروع الذي تضعه هذه اللجنة الفنّية»[١].

وعليه يجب مراعاة هذه الحقيقة عند الكلام عن المخطوطات العربيّة التي غُرِّبَت خارج أوطانها، واستقرّت في مكتبات العالم، فمن باعَ وتاجرَ بالمخطوطات مع أيّ جهةٍ كانت قبل نهاية الربع الأول من القرن العشرين في سوريا هو شخصٌ لم يخالف القانون؛ لأنّ هذا القانون غير موجودٍ أصلاً - مع مراعاة المآخذ على قانون عام ١٩٢٦م- وإنْ كنّا نألم اليوم لهذا الفعل، لكن لم يكن باستطاعة أحدٍ أن يجرّمه أو يعيبه في وقتها، طبعاً يخرج عن هذا التوصيف أُمناء المكتبات الوقفيّة، الذين خانوا الأمانة، وسرقوا المخطوطات التي تحت خِفارتهم وباعوها، وهم الوحيدون الذين تنطبق عليهم صفة السرقة والخيانة.

وكدليلٍ على ما سبق إليك هذه الحادثة التي جرت مع محمّد كرد عليّ عام ١٩١٩م؛ إذ قال: «قلتُ للركابيّ[٢]، وهو يعذلني على تعجّلي في شراء الآثار والمخطوطات وغيرها: إنّ من الأمور ما يجب عمله بسرعة، ومنها ما يتحتّم التريّث به، وشراء الآثار والمخطوطات من الأمور التي تستدعي العجلة؛ لأنّ تجارها آخذون بتلقّطها من كلّ مكانٍ، فلا يبقى إلّا التافه بعد برهة قصيرةٍ، ونحن عازمون أن نؤسّس متحفاً ودارَ كتبٍ تليقان باسم دمشق التاريخيّ»[٣].

وهذا يوضّح أنّ سوق الإتجار بالمخطوطات والآثار في دمشق بداية القرن

---

(١) التقرير النهائيّ والتوصيات. مجلّة المورد، ع١، ص ٢٣.

(٢) رضا باشا الركابيّ الحاكم العسكريّ في دمشق عام ١٩١٨م.

(٣) المذكرات: ١/ ٢٧٨.

العشرين، كان مفتوحاً على مصراعيه لمن أراد، بل إنَّ الوطنيّين الغيورين كانوا يُجدّون منافسةً في جمع تراث أمّتهم.

ومن المفيد إيراد ما قاله عن تجارة المخطوطات في دمشق؛ لأنّه يوضّح أنّ الأوربيّين كانت لهم مصالح في اقتناء التراث العربيّ المخطوط، ولكنّهم لم يكونوا ليدركوا هذه الغاية لولا أحد سماسرة الكتب الدمشقيّين، أو ضعاف النفوس من أبناء هذا التراث؛ فقال: «ومن المصائب التي أُصيبت بها الكتب أنّ بعض دول أوربا ومنها فرنسا وجرمانيا وبريطانيا العظمى وهولندا وروسيا أخذت تجمع منذ القرن السابع عشر كُتباً تبتاعها من الشام، بواسطة وكلائها وقناصلها والأساقفة والمبشّرين من رجال الدين، وكان بلغ الجهل ببعض من اتّسموا بشعار الدين، ومن كان يرجع إليهم أمر المدارس والجوامع أن يفضّلوا درهماً على أنفس كتاب؛ فخانوا الأمانة، واستحلّوا بيع ما تحت أيديهم أو سرقة ما عند غيرهم، والتصرّف به تصرّفهم بملكهم. حدثني الثقة أنّ أحد سماسرة الكتب في القرن الماضي كان يغشى منازل بعض أرباب العمائم في دمشق، ويختلف إلى متولّي خزائن الكتب في المدارس والجوامع، فيبتاع منها ما طاب له من الكتب المخطوطة بأثمان زهيدةٍ، وكان يبيعها على الأغلب، وأكثرها في غير علوم الفقه والحديث، من قنصل بروسيا إذ ذاك بما يساوي ثمن ورقها أبيض، وبقي هذا سنين يبتاع الأسفار المخطوطة من أطراف الشام حتى اجتمع له منها خزانة مهمّة رحل بها، فأخذتها حكومته منه وكافأته عليها، والغالب أنّ معظم الكتب العربيّة المحفوظة في خزانة (الأمّة) في برلين هي من هذا القطر»[1].

وكلامه السابق يأخذنا إلى ما كتبه يوليوس بيترمان في رحلته إلى الشرق؛ حيث قال: إنَّ القنصل البروسيّ في دمشق الدكتور فيتزشتاين (١٨٤٨- ١٨٦٢م)[2] كان صديقاً لأحد المسلمين الأكثر نفوذاً واحتراماً في المدينة، وأمِلَ أن يحصل منه على أيّة معلوماتٍ عن المخطوطات المسيحيّة في الجامع الأمويّ - في حال وجودها هناك

(١) خطط الشام: ٦/ ١٩٨ - ١٩٩.

(٢) ينظر ترجمته في موسوعة المستشرقين: عبد الرحمن بدوي: ٣٩٢، والأعلام: الزركليّ: ٢٦٤/٨.

- سواء للاقتناء أو للاطلاع، فأخبره الرجل أنّه بحث في جميع أرجاء الجامع ولم يرَ غير المخطوطات العربيّة، إلّا أنّ هناك غرفةً واحدة في القبة لم يدخلها من قبل، لكنّه يستطيع الدخول إليها؛ لذا سيبحث فيها ويُحيطنا علماً بنتائج بحثه، وبعد طول انتظار عاد إلينا خالي الوفاض قائلاً: لسوء الحظّ لم أتمكّن من العثور على ما تبحثون عنه؛ فالذي وجدته أربعة مصاحف كبيرة قديمة مكتوبة بالخطّ الكوفيّ تعود إلى حقبة الخلفاء الراشدين، وصناديق فيها قطع مكتوبة بالخطّ الكوفيّ تعود إلى حقبٍ مختلفة، لكن لا يوجد شيء مكتوب بلغة غير العربيّة[1].

وهذا النصّ يوضّح أنّ القنصل البروسيّ فيتزشتاين استطاع أن يدخل -معنوياً وليس فيزيقياً- إلى أقدس بقعة في المدينة، ويفتّش في مخطوطاتها، من خلال معارفه من النخبة، فمن السهل جداً أن يشتري من سوق الكتب أيّة مخطوطةٍ أرادها، أو أيّة مكتبةٍ شخصيّة عُرِضت للبيع.

كما يُبيِّن أنّ الرجل الوسيط في هذه المهمّة، إمّا أنّه لم يدخل القبة أبداً، وإمّا دخلها ولكنّه لم يبحث جيداً؛ لأنّ قسماً مهمّاً من مقتنيات القبة كان بلغاتٍ غير العربيّة[2].

وطبيعة الحياة أنّها ذات وجهين؛ فكما وُجِدَ أشخاصٌ عديمي الضمير، أو غير غيورين على تراثهم؛ وُجِدَ أيضاً أناسٌ على النقيض منهم. لذا ينفعُ هنا رصد نموذجٍ لواحدٍ من ألمع نُخب دمشق الفكريّة والعلميّة؛ هو الشيخ جمال الدين القاسميّ (ت١٣٢٢هـ/ ١٩١٤م)، الحريص على تراث دمشق الفكريّ المخطوط من التغريب،

---

(1) Petermann, Heinrich: Reisen im Orient, 1852-1855. Berichte und Ergebnisse einer Forschungsreise in der Levante, in Mesopotamien und Persien. Amsterdam: Philo Press, 1976. 99-100.

(٢) مثل العبريّة، واللاتينيّة، والفرنسيّة القديمة، واليونانيّة، والأرمنيّة، والجورجيّة، والسريانيّة، والقبطية. انظر

D'Ottone, A., 'Manuscripts as Mirrors of a Multilingual and Multicultural Society: The Case of the Damascus Find', in Negotiating Co-Existence: Communities, Cultures and Convivencia in Byzantine Society, a cura di B. Crostini-S. La Porta, Trier 2013, 63-88.

فأثناء زيارة الكتانيّ[١] المدينة في ربيع الأول سنة (١٣٢٤هـ/١٩٠٦م)، وإلقائه الدروس فيها، احتفى به الدمشقيّون أيّما احتفال، وكان من شدّة إمعان بعضهم في إكرامه أن أهداه كُتباً مخطوطة؛ فلامَهُ القاسميّ وقال له: كان من الممكن استنساخُها له، وإبقاؤها في الشام، ثمّ أضاف: لا كرمَ في الكُتب. فقال المُهدِي: الرجلُ عزيزٌ؛ فأجابه: النفسُ أعزُّ، ولكن بمثل صنيعك يزداد الوطن فقراً من الكتب! في حين أنَّ بعض البلاد يَرَون المنَّة في إراءة الكتب فقط[٢].

ويشترك مع القاسميّ في هذه الدرجة من الوعي بأهميّة الحفاظ على المخطوطات الدمشقيّة محمّد أديب آل تقيّ الدين الحصنيّ؛ إذ علَّقَ على سلوك ورثة العالم الفقيه عبد المحسن بن صالح المراديّ (ت ١٣٣٢هـ/١٩١٤م) عندما باعوا جميع مكتبته النفيسة إلى دار الكتب الظاهرية قائلاً: «يا حبّذا لو مشى على هذه الحالة كثيرٌ من بيوت العلم؛ لاستفادت وأفادت، واكتسب المورِّثُ لهذه الكتب الذكرَ الدائمَ، والثناءَ الجميل، وحُفِظَت الكتبُ القديمة من الضياع والشتات، وبقيت في البلادِ المُحتاجُ أهلها لمطالعتها»[٣].

وخلاصة القول في هذه القضيّة: إنَّ مسؤولية تغريب جزءٍ كبيرٍ من المخطوطات الدمشقيّة يقع على عاتق أُمناء المكتبات الوقفيّة، الذين خانوا الأمانة الممنوحة لهم وتصرّفوا بما لا يملكون، أمّا أصحاب الكُتب المخطوطة التي باعوها فلا جرم عليهم؛ لعدم وجود القانون الضابط لهذه الجزئية في تلك الحقبة، ولا رادع لهم إلّا الوعي بخطورة نتائج هذا التصرّف على المدى البعيد، وهو ما لم يتوافر إلّا لقلّةٍ قليلة.

وإليك ما صَدَّرَ به الحصنيّ كتابه (منتخبات التواريخ)؛ في حديثه عن ضآلة المطبوعات العربيّة مقارنة بالتراث العربيّ المخطوط، ومدى تقدير الفرنجة لهذا

(١) هو العلاّمة عبد الحيّ بن عبد الكبير الكتانيّ الحسنيّ. انظر تاريخ انتهاء زيارته دمشق سنة ١٣٢٤هـ في قصيدة وداعه التي ألقاها الشيخ أبو الخير الطباع. (فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات: عبد الحي بن عبد الكبير الكتانيّ: ١١)

(٢) ينظر جمال الدين القاسميّ وعصره: ٣٣٥.

(٣) كتاب منتخبات التواريخ لدمشق: الحصنيّ:٢/ ٧٥٣.

التراث؛ فيقول: « ولئن قالوا: إنّ وقعة التتر ببغداد، ووقايع إسبانيا بالأندلس وتونس قضت على الكتب العربيّة، فما أجلاب[1] جمعيات الكتب الإفرنجيّة على ما بقي من كتبنا بأقلّ نكايةً وأخفّ ضرراً من تلك الوقائع، وإنّ كان الفرق أن تلك الوقائع أتلفت أعيان الكتب، ومات بسببها كتاب (البارع في اللغة)... والإفرنج يأخذون كتبنا فيبالغون في حفظها وإكرامها والاستفادة منها؛ معرفةً بقدرها، وأيُنا الملوم يا ترى؟ نحن الملومون بلا شك، ونحن المغبونون بلا ريب، بل نحن الخاسرون، فرّطنا واجتهدوا، وضيّعنا وحفظوا، وجهلنا فعلموا»[2].

محمّد صادق فهمي المالح من أواخر ورّاقي دمشق:

إنَّ عصر المخطوطات هو عصر ما قبل الطباعة؛ سواء كانت طباعة حجرٍ أو طباعة بالحروف المتفرّقة، ولا ينبغي تصوّر أنّ ظهور الطباعة في أمّة من الأمم يعني نهاية حاسمة لعصر المخطوطات؛ فالتحولات الحضارية الكبرى لا تتم بين ليلةٍ وضحاها، ورغم ذلك فإنَّ التحوّل من عصر المخطوطات إلى عصر المطبوعات لم يستغرق كثيراً من الوقت؛ بسبب الميزات الكثيرة التي حملها هذا الاختراع، فالطباعة أتاحت إخراج آلاف النُسخ من الكتاب الواحد، وبأسعارٍ معقولة، بمقدور متوسطي الدخل اقتناؤها[3].

وقد دخلت الطباعة دمشق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلاديّ، وكانت أول مطبعة فيها هي المطبعة الحفنيّة؛ التي أحضرها من أوربا حنّا الدومانيّ سنة (١٢٧٢هـ/١٨٥٨م)، فاشتغل بها بضع سنين، ثمّ اشتراها منه الأديب سليم المدوَّر، ثمّ انتقلت إلى حنّا حداد، ثمّ إلى جناب محمّد أفندي الحفنيّ سنة (١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م)[4]،

---

(١) جلَبَ القوم: اجتمعوا وتألّبوا، أجْلَبَ الرجل: توعّده بشرٍ وجمع الجمع عليه. (ينظر المعجم الوسيط: ١٢٨)

(٢) منتخبات التواريخ: ١/ ٢٠.

(٣) ينظر نحو علم مخطوطات عربيّ:٩- ١٠.

(٤) ينظر تاريخ فنّ الطباعة في المشرق، فنّ الطباعة في الشام: لويس شيخو، مجلّة المشرق، ع١٩، ص ٨٧٨.

وعليه يمكن اعتبار نهاية القرن التاسع عشر نهاية عصر المخطوطات في دمشق، إلّا أنَّ ذلك لم يُغنِ علماء الربع الأول من القرن العشرين وباحثيه عن الاستعانة بأيديهم في نسخ ما يحتاجون إليه من مخطوطات، أو الاستعانة بنسَّاخٍ يُورِّقون لهم بالأجرة؛ خاصّة عندما تكون المخطوطات خارج نطاق مدنهم أو بلدانهم.

ولهذه الأسباب مجتمعة برزت في دمشقَ بداية القرن العشرين شخصيّةٌ دمشقيّة متميّزة، أثرَت الحراك الثقافيّ عبر ما نسخته من كتبٍ تراثيّة، وما أوقفته من مخطوطات للانتفاع العام، بل إنّ شهرتها في مجال النِّساخة تجاوزت حدود المدينة والإقليم لتصل إلى أوروبا والهند وبغداد والقاهرة، وعلى الرغم من هذه المكانة وهذا الدور إلّا أنّ هذه الشخصية لم يترجم لها أحدٌ من معاصريها، ولم تتناولها أيّة دراسةٍ أو بحث[1]، ولم يبقَ منها إلا ما خطّته هي بيدها؛ وهذه الشخصية هي: محمّد صادق فهمي بن أمين المالح الناسخ في المكتبة الظاهريّة بدمشق.

في الحقيقة لا نملك أيَّ تاريخ لمولده أو وفاته، ولكن صورته الفوتوجرافيّة المؤرّخة سنة (١٣٢٨هـ/١٩١٠م) توحي أنّه في العشرينيات من عمره، وعليه ربما يكون مولده في منتصف ثمانينات القرن التاسع عشر الميلاديّ.

ولقد اتّخذ محمّد صادق فهمي من النِّساخة عملاً يتقوَّت منه طوال عمره، ولازم الجلوس في المكتبة الظاهريّة بدمشق، وكان يُعرِّف بنفسه على أنّه «المستقيم في المكتبة العموميّة بدمشق للنسخ خاصّة»[2].

وكلّ ما لدينا عن محمّد صادق فهمي المالح هي الملاحظات التي كتبها على

(١) بعد انتهائي من إعداد هذا البحث، أرسل لي الصديق الأستاذ المحقّق إياد خالد الطبّاع المطّلع على بحثي هذا؛ أنّ الأستاذ يوسف السناريّ يُعدّ مقالةً عنوانها (ورّاق المكتبة الظاهريّة والخِزانة التيموريّة محمّد صادق فهميّ المالح دراسة في وعي الناسخ ووعائه)، وأنّه قام بمشاركتها على مجموعة المخطوطات الإسلاميّة على WhatsApp ؛ وهي مجموعة خاصّة، بغية الاستزادة بأيّة معلومةٍ من زملائه، إلّا أنّني لم أقتبس منها أيّة فكرة، ولا حتى مجرد كلمة. ومع هذا تقتضي الأمانة العلميّة الإشارة إليها، وتوجيه الشكر للأستاذ يوسف السناريّ؛ لتفكيره في إبراز هذه الشخصية الدمشقيّة.

(٢) أربعون حديثاً من أصول مسموعات المؤلّف عبد الخالق بن زاهر الشحاميّ، مخطوطة المكتبة الوطنيّة بدمشق: مج ٩٥٥: الورقة [٣٨/ب]. انظر اللوحة رقم١.

النُّسخ التي نسخَ عنها، وقيود الفراغ التي كتبها نهاية المخطوطات التي نسخها، وقيود الإهداء والوَقْفِ على المخطوطات التي أهداها وأوقفها في المكتبة الظاهرية بدمشق، إضافة إلى الرسالة التي أرسلها ماسينيون إلى جمال الدين القاسميّ وذكر فيها المالح عرضاً، وسنتناول كلّ فئة من هذه الفئات على حده.

الملاحظات التي كتبها على النُّسَخ التي نسخَ منها:

قام محمّد صادق فهمي المالح بكتابة ملاحظات على المخطوطات التي نسخ منها، تفيد بأنّه نسخ نسخةً منها أو أكثر، مع تحديد تاريخ النسخ، وطلَبِ الرحمة له ولوالديه والدعاء لهم، وفي أحيانٍ يذكر البلد الذي ذهبت إليه النسخة، أو اسم الشخص التي نُسخت إليه، ففي نهاية كتاب (المصطفى بأكفّ أهل الرسوخ) كتب:«نسخَ عليها نسخةً ثانية صادق فهمي المالح الناسخ بالمكتبة الظاهريّة ١٣٤٦»[١].

في حين كتب على نسخة (الردّ على الزنادقة والجهميّة): « نسخ عليها صادق فهمي المالح الناسخ بالمكتبة الظاهريّة ٣ ذي[٢] ١٣٥٠»[٣]، في حين أنّه سجَّل على نسخة (علل الحديث ومعرفة الرجال): «نسخ عليه نسخةً ثانية إلى الهند الناسخ محمّد صادق فهمي المالح ٦ ذ١ [ذي القعدة] سنة ١٣٤٦»[٤] أمّا على نسخة (الإغتراب في أحكام الكلاب) فنراه سجَّل: «نسخ عليه النسّاخ محمّد صادق فهمي المالح نسخة إلى مصر في شوال سنة ١٣٣٨، المذكور مرة ثانية سنة ١٣٣٩. نسخ عليها صادق المذكور إلى بغداد سنة ١٣٥٧، ١٩٣٨»[٥] كما أنّه أثبت على نسخة (ترجمة الحلاج):

---

(١) المصطفى بأكفّ أهل الرسوخ من علم الناسخ والمنسوخ: ابن الجوزيّ، مخطوطة المكتبة الوطنية بدمشق: مج ٣٨٥٢ ت١: الورقة [٣٤/ب].

(٢) لم يُذكر في الأصل الشهر المقصود ذو الحجة أم ذو القعدة. ينظر: اللوحة رقم (٢) في الملحق.

(٣) الردّ على الزنادقة والجهميّة فيما ادّعت به من متشابه القرآن: ابن حنبل، مخطوطة المكتبة الوطنيّة بدمشق: مج ٣٨٥٢ ت: الورقة [١٧/ب]. انظر اللوحة رقم٢.

(٤) علل الحديث ومعرفة الرجال: ابن حنبل، مخطوطة المكتبة الوطنيّة بدمشق: مج ٣٧٧٧: الورقة [٢/أ]. انظر اللوحة رقم٣.

(٥) الإغراب في أحكام الكلاب: ابن عبد الهادي، يوسف بن حسن، مخطوطة المكتبة الوطنيّة بدمشق: مج ٣١٨٦: الورقة [٥٩/أ]. أتوجه بالشكر الجزيل للأستاذ الدكتور كونراد هيرشلر Konrad

«نسخ عليها إلى العلّامة ماسينيون[١] صادق فهمي المالح سنة ١٣٣٧هـ»[٢]. وصنع الشيء ذاته مع نسخة (الشمعة المضية) التي نسخها للعلّامة أحمد تيمور باشا؛ إذ جاء في ختامها: «كتبها الفقير صادق فهمي المالح الناسخ بالمكتبة الظاهريّة بدمشق على نفقة العلّامة أحمد تيمور باشا، وذلك في يوم الأحد ثاني جمادى الثانية سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة وألف ١٣٤٣».[٣]

وهنا يتبادر إلى الذهن التساؤل الآتي: لماذا قام محمّد صادق فهمي المالح بهذا الإجراء، ولماذا سمح له القيِّمون على المكتبة بالكتابة على المخطوطات؟ خاصّة أن مسلكه هذا امتدّ قرابة نصف قرن.

في الحقيقة إنّ ما قام به محمّد صادق فهمي المالح لا يخرج عن أسلوب بعض الناسخين القدامى، ولا بدَّ أنّه لاحظ أسلوبهم ذاك فيما طالعه من مخطوطات؛ إذ كان بعضهم يُسجِّل على النسخة التي نسخ منها قيداً يُفيد بأنه أكمل دراسة الكتاب، وتحصيل ما فيه بإحدى طريقتي تحمّل العلم؛ (قراءة أو سماعاً)، كما أنهى نسخه،

Hirschler الذي أرسل لي صورة هذه المخطوطة. انظر اللوحة رقم٤.

(١) لويس ماسينيون (١٨٨٣- ١٩٦٢م) مستشرق فرنسيّ عظيم. ينظر: موسوعة المستشرقين: ٥٢٩، المستشرقون: نجيب العقيقي: ١/ ٢٦٣- ٢٦٨، خواطر وسوانح وعبر في إحياء ذكرى مستشرق، سبح، حسنيّ، مجلّة مجمع اللغة العربيّة بدمشق، مج ٥٩، ج٣، ص٤٤٧- ٤٦٢، و خواطر وسوانح وعبر في إحياء ذكرى مستشرق، مجلّة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج ٥٩، ص٦٧٧- ٦٩١: لويس ماسينيون والعولمة الروحيّة (١٩٨٣- ١٩٦٢م)، في محاضرات الموسم الثقافيّ لمركز تحقيق التراث: عِفت الشرقاويّ: ٢٦١- ١٨٠.

(٢) ترجمة الحلاّج من كتاب العِبر: الذهبيّ، مخطوطة المكتبة الوطنيّة بدمشق: مج ٣٧٤٩: الورقة [٢٠٢/ب].

(٣) الشمعة المضيّة في أخبار القلعة الدمشقيّة: ابن طولون، مخطوطة دار الكتب المصريّة (تاريخ تيمور ٢٠٥٨): [١٨/ب]. أتوجّه بالشكر إلى الأستاذ تورستن فولّينا Torsen Wollina الذي تكرّم بإرسال مجموعةٍ من صور المخطوطات التي نسخها صادق فهمي المالح للخزانة التيموريّة. انظر اللوحة رقم٥.

ومعارضته بأصل سماعه أو قراءته[١]. ومن الأمثلة على ذلك ما جاء على مخطوطة الجزء الثاني من حديث الإخميميّ؛ وهو «فرَّغه إسماعيل بن عبد الله عبد المحسن الأنصاريّ المعروف بابن الأنماطيّ، نسخاً وعرضاً وسماعاً»[٢]، وما جاء على مخطوطة فوائد الحرفيّ؛ وهو «فرَّغه نسخاً وسماعاً عليّ بن المفضّل بن عليّ المقدسيّ»[٣]، ومزية هذا القيد أنّه يقودنا إلى النُّسخ المتفرّعة عن النسخة التي جاء عليها، مؤكّداً أنّ هذه النسخة أضحت أصلاً لغيرها؛ سواء بالنسخ منها، أو بالمقابلة عليها، أو بكليهما.

وبناءً عليه يكون ما أثبته محمّد صادق فهمي المالح هو استكمالٌ لمنهج الناسخين القدامى؛ في تحديد النسخة الأصل التي نقل عنها، وترك بيانٍ ببيلوجرافيّ مهمٍّ فيه معلومات نادرة ؛ مثل: تحديد اسم الناسخ، وتاريخ النسخ، واسم المنسوخ له، والبلدان التي ذهبت إليها النسخ الفرعيّة.

قيود الفراغ التي كتبها في نهاية المخطوطات التي نسخها:

يُعدّ قيد الفراغ من نسخِ الكتابِ قيداً مهمّاً في صناعة المخطوطات، وله أدبيات يجب الالتزام بها، وقد نبَّه ابن جماعة إلى ذلك عندما نصح الناسخ أنَّ عليه في ختم الكتاب أو آخر كل جزء أن «يكتب آخر الجزء الأول أو الثاني، مثلاً، ويتلوه كذا وكذا، إن لم يكن كَمُلَ الكتاب، ويكتب إذا كمل: تمَّ الكتاب الفلانيّ؛ ففي ذلك فوائد كثيرة»[٤].

---

(١) وهذه خلاصة بحثٍ قمتُ به بعنوان: قيد تفريغ الكتب نسخاً ومعارضة في مخطوطات علم الحديث في القرون من الخامس حتى السابع الهجريّين. قدّمته لمجلّة Journal of Islamic Manuscripts ونُشر في عدد شهر آب ٢٠١٩. وهذه بيانات النشر:
قيد تفريغ الكتب نسخًا ومعارضةً في مخطوطات علم الحديث في القرون من الخامس حتى السابع الهجريّين: سعيد الجومانيّ، Journal of Islamic Manuscripts, ١٠ (٢٠١٩). ٢٥٩

(٢) حديث الإخميميّ: محمّد بن أحمد الإخميميّ، مخطوطة المكتبة الوطنيّة بدمشق. مج ٣٨٢٥ت٣: الورقة [٤٩/ ب].

(٣) فوائد الحرفيّ: عبد الرحمن بن عبيد الله الحرفيّ، مخطوطة المكتبة الوطنيّة بدمشق. مج ٣٧٤٧ت١٢: الورقة [١٦٤/ ب].

(٤) تذكرة السامع والمتكلّم في أدب العالم والمتعلم: ابن جماعة: ١٣٠.

ولا يخفى ما الفوائد المترتبة على المعلومات الواردة في قيد الفراغ؛ مثل التنبيه على أنّ الكتاب أُنجز، أو أُنجز الجزء كذا منه، وذكر اسم الناسخ، وتاريخ النسخ، وربما مكان النسخ، والتعرّف على خطوط الناسخين العلماء، وتتبّع تطور الخطّ عبر القرون.

وفيما يخصّ قيود الفراغ التي كتبها محمّد صادق فهمي المالح؛ فإنّها تتمتّع بملمحٍ خاصٍّ به، أشبه بالإمضاء الشخصيّ؛ إذ كان يستخدم ديباجة ثابتةً فيها جِناس ناقص تطرب لموسيقاه الأذن، وهذه الديباجة هي: « بقلم الفقير إلى ربّه المانح محمّد صادق فهمي بن السيّد أمين المالح»[1]، وهناك ملمحان آخران خاصّان بهذا الناسخ؛ الأول: ذِكرُ تاريخ النسخ باليوم والشهر والسنة، مع طلب الدعاء له ولوالديه بالرحمة والمغفرة، والثاني: إرفاق صورته الشخصيّة مع بعض النسخ، وكتابة بعض أبيات الشعر، كما ورد في ختام ديوان العفيف التلمسانيّ:

«نُسِخَ هذا الديوان المبارك يوم الأربعاء الواقع في خمسة وعشرون[2] جماد[3] الثاني سنة ألف وثلاثمائة وسبعة وعشرون[4] هجرية سنة ١٣٢٧، بقلم الفقير إلى ربه المانح محمّد صادق بن السيّد أمين المالح غفر الله لهما ولمن دعا لهما بخير ولجميع المسلمين آمين»[5] ثمّ جاء:

«أرسلت رسمي في الكتاب هديةً
ليكون بعدي عندكم تذكارا
يُنبيكم عنّي بأنّي صادقٌ
أرعى الوداد وإن بعدت مزارا

(١) مبادئ اللغة: الخطيب الإسكافيّ، مخطوطة المكتبة الوطنيّة بدمشق: مج ٥٩٧٤: الورقة [٩٥/ب].

(٢) كذا في الأصل.

(٣) كذا في الأصل.

(٤) كذا في الأصل.

(٥) ديوان العفيف التلمسانيّ: العفيف التلمسانيّ، مخطوطة المكتبة الوطنيّة بدمشق: مج ٤١٦٨: الورقة [١٠٩/أ].

بعثـــت لكـــم رســـمي ليحظـــى بقربكـــم
وقـــد حـــال مـــا بيـــن الجســـوم عوائـــق
فـــإنْ تجـــدوا بعـــض الرســـوم كواذبـــا
فرســـمي بمـــا يبديـــه كاســـمي صـــادق

محمّد صادق فهمي المالح المقيم لأجل النسخ بالمكتبة العموميّة بدمشق رحمه الله وغفر له ولوالديه وللمسلمين ١٣٢٨»[١]، ومثل ذلك فعله في النسخة التي كتبها من (الدرة المضيّة والعروس المرضيّة والشجرة النبوية المحمّديّة)، وأرسلها إلى مصر فأثبت صورته الشخصيّة في آخر النسخة، وفعلَ مثل هذا الأمر في أكثر من نسخةٍ موجودة بدار الكتب المصريّة حالياً[٢].

وهذا الملمح الأخير الخاصّ بإضافة صورته الشخصيّة في نهاية الكتاب يشي بأنّ

(١) ديوان العفيف التلمسانيّ: الورقة [١١٠/أ].

(٢) ينظر الفهرس الوصفيّ للنسخ الخطيّة لمؤلّفات الإمام العلاّمة المحدّث يوسف بن حسن بن عبد الهادي الدمشقيّ الصالحيّ المعروف بابن المبرّد المحفوظة بدار الكتب المصريّة: صالح بن محمّد الأزهريّ: ١١٢.

علاقته مع بعض زبائنه ربما تجاوزت نطاق علاقة العمل المهنيّ البحت إلى نوع من العلاقات الاجتماعية الوديّة، والصداقة المتبادلة.

ومن مميّزات هذا الناسخ ما فعله مع كُتب ابن عبد الهادي التي نسخها إلى مصر؛ فأرفق مع نسختي (الاغتراب في أحكام الكلاب) صفة خطّ المؤلّف على ورقٍ شفّاف، وأوصى عند طباعة الكتاب أن يُلتزم بإثبات صفة خطّ الأصل[1]، وهذه لفتة ذكيّة منه، وقد بات هذا الإجراء عنصراً رئيساً في مناهج التحقيق الحديثة.

وكرّر الشيء ذاته مع نسخة (الاقتباس لحلّ مشكل سيرة ابن سيّد الناس)، وربما فعل ذلك مع كتب ابن عبد الهادي خاصّة؛ للتدليل على أنّه نقلها من الأصل[2]، أو ربما لصعوبة قراءة خطّ هذا المؤلّف، فقدّم بذلك مبرّراً لمن كلّفه بالنَّسخ عن بعض أخطاء القراءة، أو تبريراً للسعر الذي طلبه.

قيود الإهداء والوقف على المخطوطات التي أهداها وأوقفها في المكتبة الظاهريّة بدمشق:

إنّ علاقة محمّد صادق فهمي المالح مع المكتبة الظاهريّة بدمشق كانت استثنائيّة؛ إذ كانت المكتبة بالنسبة إليه بيتاً ثانياً، ولذلك عرَّف عن نفسه بالمقيم في المكتبة، أو المستقيم بالمكتبة، ولهذه العلاقة الخاصّة نجده يقوم بأمرين؛ الأول: إهداؤه بعض الكتب للمكتبة، أو وقفه بعض الكتب على المكتبة الظاهريّة. وهنا نلاحظ اختلاط مفهوم الإهداء عند المالح بمفهوم الوقف؛ فالإهداء يحمل معانيَ اجتماعيّةً فقط؛ كإظهار المحبّة للمُهدى إليه، أو توطيد العلاقات معه، أو ربما التملّق له، ولكنّ الوقف يحمل معنى روحيّاً؛ هو التقرّب إلى الله من خلال العمل الصالح. وإليك ما كتبه على نسخة (مطالع المسرات): « هدية صادق فهمي المالح الناسخ بالمكتبة الظاهريّة إلى المجمع العلميّ الموقّر والمكتبة الظاهريّة المعظّمة سنة ١٣٤٥. هدية الشيخ صادق المالح لدار الكتب العربيّة ٢ أيار ٩٢٧ [١٩٢٧]، أنّي اشتريته من أحد تجّار الكتب؛ وهو

(١) ينظر الفهرس الوصفيّ للنسخ الخطيّة: ٩٣- ٩٤.

(٢) ينظر الفهرس الوصفيّ للنسخ الخطيّة: ٩٦.

غير دمشقيّ، وقصدت بذلك وجه الله، وأحببت أن أجعل محلّه بالمكتبة الظاهريّة لحفظ الكتب فيها إلى الأبد إن شاء الله تعالى، وقصدت بذلك قراءة الفاتحة لروحي بعد مماتي والترحّم عليَّ. وأنا الناسخ بالمكتبة الظاهريّة صادق فهمي المالح في ٢٨ شوال سنة ١٣٤٥»[١].

أمّا الأمر الثاني فهو: تكليفه بملاحظة غرفة القراءة العامّة بالمكتبة الظاهريّة، أي المحافظة على الهدوء في القاعة، ومراقبة مرتادي المكتبة في تعاملهم مع المخطوطات، فلطول مقامه في المكتبة في قاعة القراءة لنسخ ما يطلبه زبائنه، وملازمته شبه اليوميّة للقاعة، أصبح عنصراً أساسياً من عناصر المكان، ونشأت بينه وبين إدارة المكتبة علاقة وثيقة؛ فأسندت الإدارة إليه هذه المهمّة، وأغلب الظنّ أنّ هذا التكليف لا يعني أنّه كان موظفاً براتب، وإنّما كان متطوّعاً. وقد صرّح المالح بهذا التكليف في قيد الإهداء الذي كتبه على الرسالة الحشريّة؛ إذ جاء فيه: «وضعها بالمكتبة الظاهريّة لأجل الثواب من الكريم الوهّاب، الناسخ وملاحظ غرفة القراءة العامّة صادق فهمي المالح ٢٤ ذو القعدة سنة ١٣٥٩هـ»[٢].

الرسالة التي أرسلها لويس ماسينيون إلى جمال الدين الدين القاسميّ وذكر فيها محمّد صادق فهمي المالح عرضاً:

يُعدّ لويس ماسينيون (١٨٨٣- ١٩٦٢م). واحداً من أعظم العلماء المستشرقين، غزير الإنتاج العلميّ، عميق النظر فيما يكتب ويبحث، وعُرف في الأوساط العلميّة بدراساته الرصينة عن الحلّاج الصوفيّ، وفي سعيه لتحقيق ما كتبه عن الحلّاج بعث برسالة من باريس بتاريخ ٨ آذار ١٩١٢م إلى علّامة دمشق جمال الدين القاسميّ (١٨٦٦- ١٩١٤م)، يطلب إليه فيها أن يرشده على كتابٍ لابن تيمية؛ ردَّ فيه ردّاً منفصلاً على الحلّاج، وقد سمع أنّ هذا الكتاب موجودٌ في مكتبة دار الحديث الأشرفيّة، كما شرح فيها للعلّامة

---

(١) مطالع المسرّات بجلاء دلائل الخيرات: محمّد المهدي بن أحمد، مخطوطة المكتبة الوطنيّة بدمشق: مج ٢١٣: الورقة [١/أ]. انظر اللوحة رقم٦.

(٢) الرسالة الحشريّة: الحسين المفتي، مخطوطة المكتبة الوطنيّة بدمشق: مج ٤١١٣: الورقة [١/أ].

القاسميّ منهجه في بحثه عن الحلّاج، والكتب التي اطّلع عليها؛ ومن بينها كتاب ما يقول العلماء في الحسين بن منصور الحلّاج، وسؤال إلى شيخ الإسلام ابن تيمية عن الحلّاج، وبيّن ماسينيون للقاسميّ أنّ هذين الكتابين استنسخهما «بإسعاد السيّد محمّد صادق المالح الدمشقيّ النسّاخ عند كتبخانة الظاهريّة، وجدها في جزء من أجزاء الكواكب الدرّيّة»[١].

وهذه الرسالة تبيّن أن محمّد صادق فهمي المالح كان شخصيّةً معروفة عند العلماء المهتمّين بالتراث العربيّ الإسلاميّ المخطوط، كما تبيّن أنّ المالح كان صاحب دُرْبَةٍ في مجاله، وخبرة فيما يخصّ مخطوطات المكتبة الظاهريّة؛ فماسينيون أرسل للمالح يُريد نَسْخَ نصوصٍ تتعلّق برأي العلماء، أو رأي ابن تيمية تحديداً بشخص الحلّاج، دون تحديدٍ لأرقام هذه المخطوطات، ولكنّ المالح هو من وجد هذه النصوص ضمن عملٍ آخر، وهذا باعتراف ماسينيون نفسه، يُضاف إلى ذلك أنّ النصّ الذي نسخه لماسينيون عن ترجمة الحلّاج في كتاب (العبر) عبارةٌ عن ورقةٍ وحيدة ضمن مجموعٍ من ٢٢٤ ورقةً، ومثل هذه الورقة لم تُفهرس في سجلّ المكتبة العموميّة[٢].

وفي الحقيقة لم يكن محمّد صادق فهمي المالح الورّاق الدمشقيّ الوحيد، بل كان له زملاء آخرون، ومن هؤلاء الورّاقين محمّد أفندي هاشم؛ ففي رسالة بعثها الشيخ طاهر الجزائريّ من القاهرة إلى العلّامة جمال الدين القاسميّ في دمشق مؤرّخة بـ (١٥ ذي القعدة ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م)، ذكر له ملاحظةً جانبية جاء فيها: «أرجو أن تذكروا لمحمّد أفندي هاشم المبادرة إلى إرسال الرسائل التي نسخها لصديقنا الفاضل أحمد بيك تيمور؛ فقد مضى نحو سنةٍ على الوعد، وبلّغوه سلامنا»[٣].

ولم يكن هذا الحال في دمشق فقط في القرن الرابع عشر الهجريّ، بل في سواها

(١) جمال الدين القاسميّ وعصره: ٥٥٩.

(٢) انظر الجزء الخاصّ بالمجاميع في سجلّ المكتبة العموميّة في دمشق. دمشق: مطبعة الجمعيّة الخيريّة، ١٢٩٩هـ ٢٨ - ٣٢.

(٣) جمال الدين القاسميّ وعصره: ٥١١.

من المدن العريقة في الحضارة العربيّة الإسلاميّة، الزاخرة بالمخطوطات؛ فقد كان للورّاقين « في القاهرة مِنْضَدَة مُخصّصة لهم بالمكتبة؛ حيث كانوا يجلسون ومعهم علب الأقلام والمحابر، وينسخون المخطوطات بأقلام القصب التي كانوا يفضّلونها على ريشة الكتابة المعدنيّة، وكان عدد كبير منهم يكتبون مخطوطاتٍ مطابقة للأصل وواضحة»[1].

وخلاصة القول:

- إنّ سوق بيع الكتب في دمشق في القرن التاسع عشر كان في منطقة (الكلاسة) شمالي الجامع الأمويّ على مقربةٍ من ضريح صلاح الدين الأيوبيّ، وإضافة إلى هذا السوق كانت عملياتُ بيع الكتب والمخطوطات تجري ضمن المنازل بعيداً عن الأسواق، وفي أيام الجمعة بعد صلاة الظهر كانت التركات تُباع في الجامع الأمويّ، ويوجد في بعضها مكتبات خاصّة.
- في القرن التاسع عشر وبداية العشرين تقاسمت مهنة الوِراقة بدمشق ست مهن؛ اقتصر فيها دور الورّاق على بيع موادّ الكتابة وأدواتها، في حين اختص الكتبيّ أو الصحّاف ببيع الكتب، وفي بداية القرن العشرين انتقل سوق الكتب إلى منطقة (المسكيّة) أمام باب البريد.
- إنَّ مسؤولية تغريب جزءٍ كبيرٍ من المخطوطات الدمشقيّة يقع على عاتق أمناء المكتبات الوقفيّة؛ الذين خانوا الأمانة الممنوحة لهم، وتصرّفوا بما لا يملكون، أمّا أصحاب الكتب المخطوطة التي باعوها فلا جرم عليهم؛ لعدم وجود القانون الضابط لهذه الجزئية في تلك الحقبة، ولا رادع لهم إلّا الوعي بخطورة نتائج هذا التصرّف على المدى البعيد، وهو ما لم يتوافر إلا لقلّةٍ قليلة.
- إنّ دخول الطباعة إلى دمشق في منتصف القرن التاسع عشر لم يُخرج الورّاقين من الساحة بشكلٍ نهائيّ؛ فقد ظلّت الحاجة إلى خدماتهم مُلحّة، خاصّة للباحثين القاطنين خارج المدينة، ومادّتهم العلميّة توضع على رفوف

(١) الكتاب العربيّ منذ نشأته حتى عصر الطباعة: بيدرسون: ٧٦، نقلًا عن الوراقة وأشهر أعلام الورّاقين: ٢٦.

المكتبات الدمشقيّة، ويُعدّ محمّد صادق فهمي المالح ورّاقاً دمشقيّاً بارزاً؛ لعب دوراً مهمّاً في تيسير أبحاث العلماء، وتوفير مادّتهم العلميّة عِبر ما نسخه بيمينه، كما لعبَ دوراً مهمّاً آخر في الحفاظ على جانبٍ من التراث الفكريّ العربيّ الإسلاميّ عِبر ما نسخه من كتبٍ وما أوقفه منها، وأظهر البحث أنّ هذا الورّاق كان خبيراً بالمخطوطات المحفوظة في المكتبة الظاهريّة، عارفاً بمضامينها؛ فقد لازمها وعايشها ما يقرب من نصف قرن؛ فأقدمُ تاريخ نسخٍ له وقفتُ عليه كان سنة ١٣١٥هـ[1]، وأحدثُ تاريخ نسخٍ له كان سنة ١٣٥٩هـ، وهذه الخبرة جعلت كبار العلماء في العالم يقصدونه؛ ليمدّهم بمادّة أبحاثهم، كما كان له قصب السبق في جزئيّة إثبات خطّ المؤلّف الأصليّ على ورقٍ شفاف، وإرفاقها مع النسخة المنسوخة.

(١) ينظر بذل المجهود في إقناع اليهود: السموأل بن يحيى، مخطوطة المكتبة الوطنيّة بدمشق: مج ٣٦٢١ت.

ملحق بالبحث

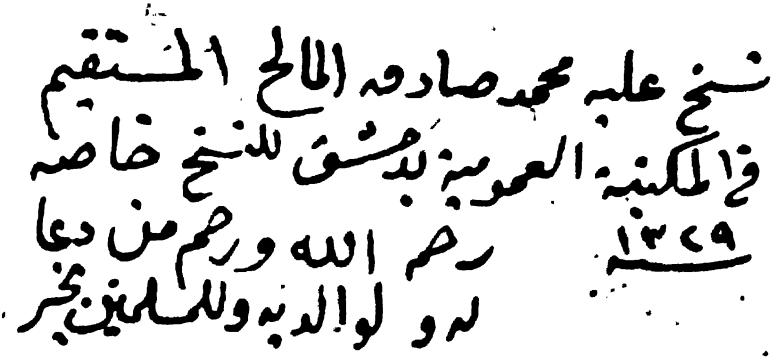

اللوحة رقم١

الشحامي، عبد الخالق بن زاهر. أربعون حديثاً من أصول مسموعات المؤلّف. مخطوطة المكتبة الوطنيّة بدمشق، مج ٩٥٥، الورقة [٣٨/ب].

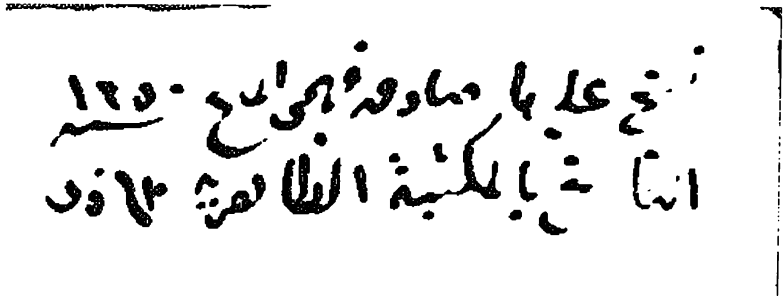

اللوحة رقم٢

ابن حنبل، أحمد بن حنبل. الردّ على الزنادقة والجهميّة فيما ادّعت به من متشابه القرآن. مخطوطة المكتبة الوطنيّة بدمشق، مج ٣٨٥٢ ت، الورقة [١٧/ب].

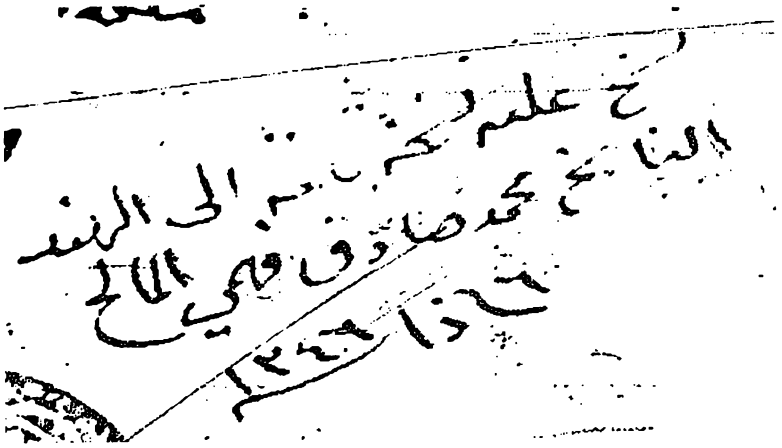

اللوحة رقم

ابن حنبل، أحمد بن حنبل. علل الحديث ومعرفة الرجال. مخطوطة المكتبة الوطنيّة بدمشق، مج ٣٧٧٧، الورقة [٢/أ].

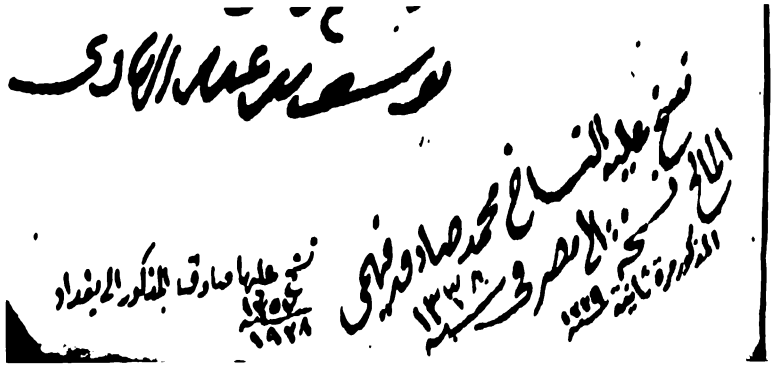

اللوحة رقم٤

ابن عبد الهادي، يوسف بن حسن. الإغراب في أحكام الكلاب. مخطوطة المكتبة الوطنيّة بدمشق، مج ٣١٨٦، الورقة [٥٩/أ].

كتبها الفقير صادق فهي المالح الناسخ بالكتبة الظاهرية بدمشق
على نفقة العلامة احمد تيمور باشا وذلك يوم الاحد ثاني جمادى الثانية
سنة ثلاث واربعين وثلاثمائة والف
١٣٤٣

اللوحة رقم٥

ابن طولون، محمّد بن عليّ. الشمعة المضيّة في أخبار القلعة الدمشقيّة. مخطوطة دار الكتب المصريّة (تاريخ تيمور ٢٠٥٨)، [١٨/ب].

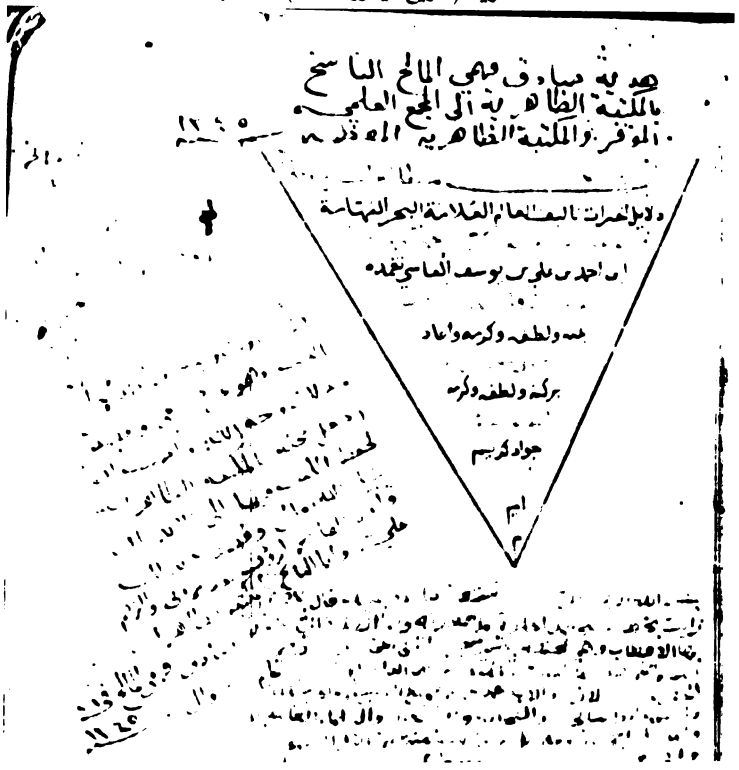

اللوحة رقم٦

محمّد المهدي، محمّد المهدي بن أحمد. مطالع المسرّات بجلاء دلائل الخيرات. مخطوطة المكتبة الوطنيّة بدمشق، مج ٢١٣، الورقة [١/أ].

المصادر والمراجع

المخطوطات

١. أربعون حديثاً من أصول مسموعات المؤلّف عبد الخالق بن زاهر الشحاميّ: مخطوطة المكتبة الوطنيّة بدمشق: مج ٩٥٥.

٢. الإغراب في أحكام الكلاب: ابن عبد الهادي، مخطوطة المكتبة الوطنيّة بدمشق: مج ٣١٨٦.

٣. بذل المجهود في إقناع اليهود: السموأل بن يحيى، مخطوطة المكتبة الوطنيّة بدمشق: مج٣٦٢١ت.

٤. ترجمة الحلّاج من كتاب العِبر الذهبيّ: مخطوطة المكتبة الوطنيّة بدمشق: مج ٣٧٤٩.

٥. حديث الإخميميّ: محمّد بن أحمد الإخميميّ، مخطوطة المكتبة الوطنيّة بدمشق. مج ٣٨٢٥ت٣.

٦. ديوان العفيف التلمسانيّ: سليمان بن عليّ العفيف التلمسانيّ، مخطوطة المكتبة الوطنيّة بدمشق: مج ٤١٦٨.

٧. الردّ على الزنادقة والجهميّة فيما ادّعت به من متشابه القرآن: ابن حنبل، مخطوطة المكتبة الوطنيّة بدمشق: مج ٣٨٥٢ ت.

٨. رسالة الحشريّة: الحسين بن عليّ المفتي، مخطوطة المكتبة الوطنيّة بدمشق: مج ٤١١٣.

٩. الشمعة المضيّة في أخبار القلعة الدمشقيّة: ابن طولون، مخطوطة دار الكتب المصريّة (تاريخ تيمور ٢٠٥٨).

١٠. علل الحديث ومعرفة الرجال: ابن حنبل، مخطوطة المكتبة الوطنيّة بدمشق: مج ٣٧٧٧.

١١. فوائد الحرفيّ: عبد الرحمن بن عبيد الله الحرفيّ، مخطوطة المكتبة الوطنيّة بدمشق. مج ٣٧٤٧ت١٢.

١٢. كتاب العلم: أبو خيثمة زهير بن حرب، مخطوطة المكتبة الوطنيّة بدمشق، مج ٣٨٥٦ت.

١٣. مبادئ اللغة: محمّد بن عبد الله الخطيب الإسكافيّ، مخطوطة المكتبة الوطنيّة بدمشق: مج ٥٩٧٤.

١٤. المصطفى بأكفّ أهل الرسوخ من علم الناسخ والمنسوخ: عبد الرحمن بن عليّ ابن الجوزيّ، مخطوطة المكتبة الوطنيّة بدمشق: مج ٣٨٥٢ ت١.

١٥. مطالع المسرّات بجلاء دلائل الخيرات: محمّد المهدي بن أحمد، مخطوطة المكتبة الوطنيّة بدمشق: مج ٢١٣.

المطبوعات

١٦. آثار البلاد وأخبار العباد: زكريا بن محمّد بن محمود القزوينيّ، دار صادر، بيروت.

١٧. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: محمّد بن أحمد المقدسيّ المعروف بالبشاريّ، لايدن بريل، ط٢، ١٩٠٦م.

١٨. أسواق دمشق القديمة ومشيّداتها التاريخيّة: قتيبة الشهابيّ، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٠م.

١٩. الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين: خير الدين الزركليّ، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ٢٠٠٢م.

٢٠. أعيان العصر وأعوان النصر: الصفديّ، تحقيق علي أبو زيد وآخرين، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨م.

٢١. إنباه الرواة على أنباه النحاة: عليّ بن يوسف القفطيّ، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، دار الفكر العربيّ، القاهرة، ١٩٨٦م.

٢٢. الأنساب: السمعانيّ، مطبعة مجلس المعارف العثمانيّة، حيدر آباد الدكن، ١٩٧٧م.

٢٣. البداية والنهاية: ابن كثير، دار المعارف، بيروت، ط٧، ١٩٨٨م.

٢٤. تاج العروس من جواهر القاموس: الزبيديّ، تحقيق: عبد الستار فراج، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، ١٩٦٣م.

٢٥. تاريخ ابن قاضي شهبة: ابن قاضي شهبة، تحقيق: عدنان درويش، المعهد العلميّ الفرنسيّ للدراسات العربيّة، دمشق، ١٩٩٤ م.

٢٦. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: محمّد بن أحمد بن عثمان الذهبيّ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٠م.

٢٧. تاريخ البصرويّ: البصرويّ، تحقيق: أكرم العلبيّ، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٤٠٨هـ

٢٨. تاريخ التمدّن الإسلاميّ: جورجي زيدان، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٩م.

٢٩. تاريخ الكتاب: دي جروليه، ترجمة: خليل صابات، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، القاهرة، ١٩٥٦م.

٣٠. تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها: ابن عساكر، تحقيق: علي شيري، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦م.

٣١. تذكرة السامع والمتكلّم في أدب العالم والمتعلّم: ابن جماعة، اعتنى به: محمّد بن مهدي العجميّ، دار البشائر الإسلاميّة، بيروت، ط٣، ٢٠١٢م.

٣٢. تقاليد المخطوط العربيّ الببليوجرافيّة: إعداد: محمود زكي، معهد المخطوطات العربيّة، القاهرة، ٢٠٠٨م.

٣٣. تكملة المعاجم العربيّة: رينهارت دوزي، نقله إلى العربيّة: جمال خياط، دار الشؤون الثقافيّة

العامّة، بغداد، ١٩٩٩م.

٣٤. ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: الثعالبيّ، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م.

٣٥. جمال الدين القاسميّ وعصره: ظافر القاسميّ، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٦٦م.

٣٦. جمهرة أشعار العرب في الجاهليّة والإسلام: أبو زيد محمّد بن أبي الخطّاب، تحقيق: محمّد البجاوي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٨١م.

٣٧. حكاية أبي القاسم البغداديّ: أبو المطهّر محمّد بن أحمد الأزديّ، تحقيق: آدم ميتز هايدلبيرغ، ١٩٠٢م.

٣٨. خزائن الكتب القديمة في العراق منذ أقدم العصور حتى سنة ١٠٠٠ للهجرة: كوركيس عوّاد، دار الرائد العربيّ، بيروت، ١٩٨٦م.

٣٩. خَططُ الشام: محمّد كرد عليّ، مطبعة الترقّي، دمشق، ١٩٢٧م.

٤٠. خَططُ دمشق، نصوص ودراسات في تاريخ دمشق الطبوغرافيّ وآثارها القديمة: صلاح الدين المنجد، المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت، ١٩٤٩م.

٤١. خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر: المحبيّ، المطبعة الوهيبة، القاهرة، ١٢٨٤هـ

٤٢. الدارس في تاريخ المدارس: عبد القادر بن محمّد النعيميّ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م.

٤٣. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ابن حجر العسقلانيّ، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣م.

٤٤. دفاتر شاميّة عتيقة، مذكّرات ومرويّات ونوادر من تاريخ دمشق: أحمد أيبش، دمشق، دار قتيبة، بيروت، ٢٠٠٢م.

٤٥. دمشق (المذكرات): محمّد كرد عليّ، دار أضواء السلف، ٢٠١٠م.

٤٦. ذيول العِبر في خبر من غَبر: الذهبيّ، تحقيق: محمّد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٨٥م.

٤٧. رحلة ابن بطوطة أو تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار: ابن بطوطة، المطبعة الأزهريّة، القاهرة، ١٩٢٨م.

٤٨. السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة: محمّد بن عبد الله النجديّ (ابن حميد)، تحقيق: بكر بن عبد الله أبو زيد، وعبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦م.

٤٩. سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر: محمّد خليل بن عليّ المراديّ، دار الكتاب الإسلاميّ، القاهرة.

٥٠. شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد الحنبليّ، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، بيروت، ١٩٩١م.

٥١. صبح الأعشى في صناعة الإنشا: القلقشنديّ، دار الكتب المصريّة، القاهرة، ١٩٢٢م.

٥٢. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: محمّد بن عبد الرحمن السخّاويّ، دار الجيل، بيروت.

٥٣. العقد الفريد: ابن عبد ربه الأندلسيّ، تحقيق: عبد المجيد الترحينيّ، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٨٣م.

٥٤. العلوم والهندسة في الحضارة الإسلاميّة لبنات أساسية في صرح الحضارة الإنسانيّة: دونالد ر هيل، ترجمة: أحمد فؤاد باشا، المجلس الوطنيّ للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ٢٠٠٤م.

٥٥. فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات: عبد الحي بن عبد الكبير الكتانيّ، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ١٩٨٢م.

٥٦. الفهرس الوصفيّ للنسخ الخطّيّة لمؤلّفات الإمام العلّامة المحدّث يوسف بن حسن بن عبد الهادي الدمشقيّ الصالحيّ المعروف بـ(ابن المبرّد) المحفوظة بدار الكتب المصريّة: صالح بن محمّد الأزهريّ، لطائف لنشر الكتب والرسائل العلميّة، الكويت، ٢٠١٢م.

٥٧. الفهرست: أبو الفرج محمّد بن أبي يعقوب إسحق النديم، تحقيق: رضا تجدد، طهران، ١٣٩١هـ

٥٨. قاموس الصناعات الشاميّة: محمد سعيد القاسميّ، تحقيق: ظافر القاسميّ، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٨م.

٥٩. قواعد تقييم المخطوطات القديمة في صناعة المخطوط العربيّ الإسلاميّ من الترميم إلى التجليد: عبد الرحمن فرفور، مركز جمعة الماجد، جامعة الإمارات العربيّة المتحدة، المنظمة الإسلاميّة للتربية والعلوم والثقافة، دبي، ١٩٩٧م.

٦٠. الكتاب العربيّ منذ نشأته حتى عصر الطباعة: بيدرسون، يوهانس، نقلًا عن الوِراقة وأشهر أعلام الورّاقين: دراسة في النشر القديم ونقل المعلومات، عليّ بن إبراهيم النملة، مكتبة الملك فهد الوطنيّة، الرياض، ١٩٩٥م.

٦١. كتاب منتخبات التواريخ لدمشق: محمّد أديب آل تقيّ الدين الحصنيّ، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٩م.

٦٢. كنوز الأجداد: محمّد كرد عليّ، دار أضواء السلف، دمشق، ٢٠١٠م.

٦٣. لسان العرب: ابن منظور، دار المعارف، القاهرة.

٦٤. لطائف المعارف: الثعالبيّ، تحقيق: ب. دي جونج. لايدن: بريل، ١٨٦٧م.

٦٥. لويس ماسينيون والعولمة الروحيّة (١٩٦٢-١٩٨٣م): عِفت الشرقاويّ، في محاضرات الموسم الثقافيّ لمركز تحقيق التراث، إعداد: حسام عبد الظاهر، دار الكتب والوثائق القوميّة، القاهرة: ٢٠١٤م.

٦٦. المدخل: ابن الحاج، مكتبة دار التراث، القاهرة.

٦٧. المستشرقون: نجيب العقيقيّ، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠م.

٦٨. معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب: ياقوت الحمويّ، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ١٩٩٣م.

٦٩. معجم البلدان: ياقوت الحمويّ، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م.

٧٠. معجم دمشق التاريخيّ للأماكن والأحياء والمشيدات ومواقعها وتاريخها كما وردت في نصوص المؤرّخين: قتيبة الشهابي، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٩م.

٧١. معلّقة طرفة بن العبد في محاضرات المجمع العلميّ العربيّ بدمشق: عبد القادر المغربيّ، المطبعة الحديثة، دمشق، ١٩٢٥م.

٧٢. معيد النعم ومبيد النقم: السبكيّ، تحقيق: محمّد عليّ النجار وآخرين، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٤٨م.

٧٣. مفاكهة الخلّان في حوادث الزمان: ابن طولون، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٩٨م.

٧٤. مقدّمة ابن خلدون: عبد الرحمن ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠١م.

٧٥. المكافأة وحسن العقبى: أحمد بن يوسف الكاتب ابن الداية، تحقيق: محمود محمّد شاكر، دار الكتب العلميّة، بيروت.

٧٦. مناقب بغداد: ابن الجوزيّ، تحقيق: محمّد بهجة الأثريّ، مطبعة دار السلام، بغداد: ١٣٤٢هـ

٧٧. موسوعة المستشرقين: عبد الرحمن بدوي، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٣م.

٧٨. موسوعة الوراقة والورّاقين في الحضارة العربيّة الإسلاميّة: خير الله سعيد، مؤسسة الانتشار العربيّ، بيروت، ٢٠٠١م.

٧٩. نبذة تاريخيّة في الحرف الدمشقيّة: إلياس عبده قدسي، مؤسسة هنداوي سي آي سي، المملكة المتحدة، ٢٠١٩م.

٨٠. نحو علم مخطوطات عربيّ: عبد الستّار الحلوجيّ، دار القاهرة، القاهرة، ٢٠٠٤م.

٨١. نزهة الأنام في محاسن الشام: أبو البقاء عبد الله البدريّ، دار الرائد العربيّ، بيروت، ١٩٨٠م.

٨٢. الوافي بالوفيات: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفديّ، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠م.

٨٣. الوراقة دراسة في المفهوم والمصطلحات في صناعة المخطوط العربيّ الإسلاميّ من الترميم إلى التجليد: يحيى محمود بن جنيد الساعاتيّ، مركز جمعة الماجد، دبي، ٢٠٠١م.

٨٤. الوراقة وأشهر أعلام الورّاقين دراسة في النشر القديم ونقل المعلومات: عليّ بن إبراهيم النملة،

مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٩٩٥م.

٨٥. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ابن خلّكان، تحقيق: إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨م.

المجلّات

٨٦. تاريخ فنّ الطباعة في المشرق: فنّ الطباعة في الشام: لويس شيخو، مجلّة المشرق، ع١٩ (أكتوبر ١٩٠١م).

٨٧. حكاية أبي القاسم البغداديّ، حول المؤلّف والعصر والنوع: محمّد بن تتا، مجلّة مجمع اللغة العربيّة. مج ٨٥، ج٤ (٢٠١٠م).

٨٨. خواطر وسوانح وعبر في إحياء ذكرى مستشرق: حسني سبح، مجلّة مجمع اللغة العربيّة بدمشق، مج ٥٩، ج٣ (تموز ١٩٨٤)، و مج ٥٩، ج٤(تشرين الأول ١٩٨٤م).

٨٩. صحف الكتابة وصناعة الورق في الإسلام: حبيب الزيّات، مجلّة المشرق، ع٤ (أبريل ١٩٥٤م).

٩٠. عمدة الكتاب وعدّة ذوي الألباب المنسوب إلى المعزّ بن باديس، تحقيق: عبد الستار الحلوجيّ، وعليّ عبد المحسن زكي، مجلّة معهد المخطوطات العربيّة، مج ١٧، ج١ (مايو ١٩٧١م).

٩١. قانون الآثار الصادر بالمرسوم التشريعيّ رقم ٢٢٢ تاريخ ١٩٦٣/١٠/٢٦م.

٩٢. قيد تفريغ الكتب نسخًا ومعارضةً في مخطوطات علم الحديث في القرون من الخامس حتى السابع الهجريّين: سعيد الجومانيّ، Journal of Islamic Manuscripts, ١٠ (٢٠١٩).

٩٣. كتاب الحسبة: ابن عبد الهادي، تحقيق: حبيب الزيات. مجلّة المشرق، ع ٣٥ (١٩٣٧م).

٩٤. مجلّة المورد، ع١ (فبراير ١٩٧٦م).

٩٥. نزهة الرفاق عن شرح حال الأسواق: يوسف بن حسن ابن عبد الهادي،تحقيق: حبيب الزيّات، مجلّة المشرق ع٣٧ (١٩٣٩م).

٩٦. نظام الآثار القديمة في سورية ولبنان قرار ٢٠٧: مجلّة المجمع العلميّ العربيّ، مج٦، ع٨ (آب ١٩٢٦م).

المصادر الأجنبية

97. Petermann, Heinrich: Reisen im Orient, 1852-1855. Berichte und Ergebnisse einer Forschungsreise in der Levante, in Mesopotamien und Persien. Amsterdam: Philo Press, 1976.

98. D'Ottone, A., 'Manuscripts as Mirrors of a Multilingual and Multicultural Society: The Case of the Damascus Find', in Negotiating Co-Existence: Communities, Cultures and Convivencia in Byzantine Society, a cura di B. Crostini-S. La Porta, Trier.

99. Wilkinson, John Gardner: Manners and Customs of the ancient Egyptians. London: JOHN MURRAY, 1837. p 153.

100. http://orient-digital.staatsbibliothek-berlin.de/receive/SBBMSSecentry_secentry_

101. Boris Liebrenz: Die Rifâ'īya aus Damaskus. Eine Privatbibliothek in osmanischer Zeit und ihr kulturelles Umfeld, Leiden, Brill, 2016:

102. . Boris Liebrenz: The library of Ahmad al-Rabbat. Books and their audience in 12th to 13th / 18th to 19th century Syria. Elger, Ralf / Ute Pietruschka (eds.): Marginal perspectives on Early Modern Ottoman culture, Halle, 2013. pp. 17- 59.